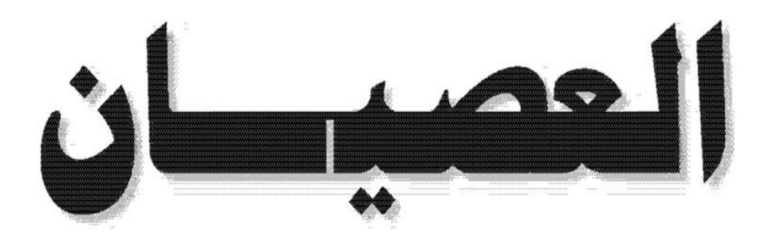

العصيان
ألبرتو مورافيا
خليل حنا تادرس



العصيان

ألبرتو مورافيا

ترجمة

خليل حنا تادرس

الفهرس

الفصل الأول

شعر لوقا إثر عودته إلى المدينة –بعد أن قام بتمضية عطلة الصيف على ساحل البحر كما هي العادة كل عام وفي مثل هذا الوقت من السنة– بأن صحته ليست كما يرام، وليست كما كانت قبل أن يذهب إلى الساحل.. شعر أن هناك مرضًا ما يسعى في جسده وجعله معلولاً.. أحس بتلك الجرثومة وهي تسري في بدنه وتخضب جسده.

وأحس ضمن ما أحس في تلك الأيام الأخيرة أنه قد كبر بصورة مفاجئة؛ ورغم أن عمره هو خمسة عشر ربيعًا؛ إلا أنه قد صارت له قامة الرجال.. ولكن كتفاه ظلا على ما هما عليه من ضيق وصغر.. وتبدو على ذلك الوجه الأبيض الخاص به عينان واسعتان يظهر عليهما أنهما تلتهمان خديه الأجوفين وجبينه الأصفر..

إنه لو انتبه إلى ذلك الضعف المتسلط على جسمه، وانتبه للأخطار التي قد تنتج عن هذا الضعف، إذًا لحاول الإصرار لدى والديه ليسمحا له بالانقطاع عن الذهاب إلى المدرسة مؤقتًا، ولكنه –كما هي العادة في ذلك السن وبتلك الحساسية التي يتميز بها أصحاب سن المراهقة– لم يكن في مقدوره أن يبني العلاقة بين حالته الصحية المتقهقرة وبين نفوره المعتاد من المدرسة.

لقد ذهب دومًا إلى المدرسة ويبدو له طبيعيًّا دوام الذهاب إليها، حتى لقد ظهر له أحيانًا أن الأشياء التي كان عليه أن يتعلمها لم تكن تظهر له موزعة بترتيب وفقًا لأيام الشهر والسنة المدرسية؛ إذ إنها كانت تجتمع جميعها أمامه منتصبة كشيء يشبه الجبل الأملس السفوح الذي لا يستطيع أن يتخطاه الإنسان ولا يرقى إلى الصعود إليه.

لم تكن تنقصه الإرادة، ولكن لم يكن يعرف أي اندفاع جسماني؛ لأن شجاعته الجسدية تنقصه.. هذا الجسد الذي كان يبدو له أنه لا يلبيه كالحصان الذي أنهكه التعب وأضناه، فيرفض الجري والانطلاق تحت فارسه رغم المهماز الذي ينهزه به صاحبه الفارس الذي يمتطيه.

ولكن هذا الجسد نفسه كان يثور أحيانًا، وبإيعاز غير ملموس من لوقا (إيعاز خفي) سرعان ما يلبيه الجسد.. ولم تكن تلك الثورة على أشياء ذات قيمة؛ بل هي أمام تلك الأشياء التافهة الواقعة الحدوث كل يوم ولمختلف الناس.

لقد كان لوقا في تلك الأيام رهن لوقوع اضطرابات عنيفة وطارئة، يبدو من خلالها أن جسده الضعيف الواهن يقوم بإفناء القوى القليلة الباقية له في نوبات من العصيان والحقد، وكان ذلك العصيان يظهر في أقل الأمور تفاهة في حياته اليومية كنوع من إثبات الذات.. كان لوقا يعتقد أن ذلك العالم جميعه قد تكاتف ضده وأنه يشاكسه، واعتقد أنه أصبح عدو المجتمع، وأن ذلك المجتمع قد أضرم نيران الحرب عليه، حتى لقد اعتقد لوقا أنه فقد السيطرة على

أبسط الأشياء، وأن عدم السيطرة تلك قد وصلت إلى الذروة أثناء الإجازة الصيفية.. وعلى سبيل المثال ذلك الحادث الذي وقع له، وأيد ذلك التفكير الذي في ذهنه عن تلك العداوة القائمة بينه وبين الحقيقة التي تحيط به.

كان لوقا يحب القيام ببعض الإصلاحات التي يعتقد هو أنها ضرورية بالبيت؛ فإن من تلك العادات التي اكتسبها لوقا أنه كلما وجد أعطالاً في الكهرباء بالمنزل فإنه يسارع بإجراء الإصلاحات التي يجدها ضرورية، وحدث في إحدى الأمسيات على أثر حدوث شرارة بين بعض أسلاك الكهرباء في المنزل أن انطفأ النور.. فقامت والدته بالنداء عليه طالبة منه أن يقوم بإرجاع النور وإصلاحه إذا أمكنه ذلك، وأحضر لوقا معداته وشرع على الفور في اتخاذ إجراءات الإصلاح.. ولكن إهماله جعله يلمس تلك الأسلاك من دون أن يتخذ إجراءات الوقاية من الكهرباء وعزل التيار قبل أن يلمسه فسرعان ما مسه تيار الكهرباء تلك اللمسة التي جعلت جسده يرتعش من الألم، فصرخ لوقا وهو ينطرح أرضًا، ولم يدر بنفسه إلا والبكاء يدفعه إلى الصياح، وأسرع إلى أحضان أمه وهو يبكي كالأطفال، وكان جسده يرتجف لا يدري من الألم أم من الخوف.. وأصيب بحروق في يديه التي مست ذلك السلك المكشوف، وعلى قدر ما لتفاهة هذا الموضوع عند كثير من الناس إلا أن لوقا أخذ يعاني من تلك الحادثة زمنًا طويلاً؛ وذلك لفرط حساسيته كما ذكرت من قبل.. وسوف نسوق حادثة أخرى في هذا المجال:

في أثناء عودته من أجازة العطلة الصيفية وقبل وصوله إلى المدينة بوقت قليل تملكه غضب آخر وهو في القطار. فلقد صحا من النوم ساعة مبكرًا، وتناول طعام فطوره بسرعة في البيت الذي كان بحالة من الفوضى في وسط الصناديق والحقائب.. وبينما هو يتناول كأسًا من الحليب الرديء اللون سمع صوت أمه وهي تقول له:

- تناول طعامك جيدًا؛ إذ إن الطعام يتأخر تقديمه في عربة الطعام بالقطار.

وبدا له أنه سوف يتناول طعامه بإحدى عربات الطعام التي شاهدها في أحد القطارات أثناء وقوفها.. وأطلق العنان إلى خياله للتفكير في ذلك الطعام الذي سوف يقدمونه له.. وتخيل أن اللحم والحساء بالتأكيد سيكون لهما مذاق خاص، وهو يتناولهما بجانب تلك النافذة، والقطار ينهب الأرض باتجاه المدينة، ومناظر الريف البديعة تمر أمام عينيه، والقطار يسابق الريح.. إنه من فرط حساسية لوقا أنه يكره أن يراه أحد من الناس في ذلك الوضع وهو يتناول ساندويتشًا.. وأنه يكره أيضًا الأكل وسط فتات الطعام وقشور الفواكه، وما إلى ذلك من مثل هذه الأشياء.

ومر الرجل الذي يحجز أماكن الطعام للمسافرين أمام مقاعد أسرة لوقا، وانتظر لوقا من والده أن يقوم بحجز الأماكن لهم في عربة الطعام، ولكن والده لم يفعل، وظن لوقا أن والده ينتظر الدور الثاني للحجز، ولكن والده لم يفعل، وقال:

– إن ذلك الطعام الذي يقدم في عربة القطار لا يتسم بالجودة، كما أنه مرتفع القيمة.. وعلى ذلك لسوف نتناول طعامنا في مطعم الأورفياتو، فهو يقدم خدمات ممتازة وأسعار أقل من أسعار القطار.

لم يكن والد لوقا يتكلم هذا الكلام عن بخل أو قلة اليد، ولكنه تكلم هذا الكلام عن بساطة وحسن نية، وأجابت والدته أيضًا بتلك الكلمات السريعة:

– كما تريد.. على الرغم من نظافة عربة القطار.

وانتهت تلك المناقشة السريعة الهادئة والتي لم تستغرق أكثر من دقيقتين بفوز الأب؛ فوز تافه كان بالتقاء روحين شقيقتين في ملتقى طريقين متشابهين، ولكن لوقا ورغم أنه كان يعلم أن والديه لم يتفقا عليه إلا أنه غضب لذلك غضبًا شديدًا.. إن ما أغاظه في ذلك الموضوع هو أن والداه قد أغفلا رأيه ولم يسألاه عن رغبته، وربما لو فعلا لقال لوقا مثلما قال والده، وانتهى الموضوع عند ذلك الحد من المناقشة.. ولكن شعورًا آخر جاءه يزيد في بلائه الكثير؛ شعور لم يعرف ما نشأته، ولا يتعلق بموضوع هذه المعاكسة الخاصة؛ ذلك الغضب الاعتيادي الذي بدا قادمًا من بعيد، وانفجر فجأة كحريق شديد يحرقه ويهزه بأكمله، فشحب لونه وصر على أسنانه بقوة، وأغمض عينيه شاعرًا بنفسه وقد أصبح كل شيء عنده قاسٍ على أثر هذا الغضب الشديد الذي منح الصلابة لجسمه. وخلال ذلك راودته رغبة في الانتحار بفتح باب القطار وهو يندفع بأقصى سرعاته ورمي نفسه خارجه.

لم تفزعه فكرة الانتحار، ولم تكن تبدو له غريبة؛ فلقد كانت كما فهمها: النتيجة الحتمية لشعوره الهائج بعدم القدرة على التفكير والذي كان يزعجه. وعلى كلٍّ لم تكن الأهمية تنحصر في رغبته تناول الطعام بعربة القطار، أو عدم تناولها، بقدر ما كانت تنحصر في شعوره بأن والديه هما الآخرين قد أصبحا من نفس المواد المعادية لتفكيره.

ورغم هذا التفكير لم يتخل عنه غضبه، ونظر إلى والده وهو ينزل من القطار ويقوم بشراء ذلك الطعام الجاهز من مطعم أورفياتو ثم وهو يعود لاهثًا إلى العربة ثانية، ثم وهو يسأله:

– هل تريد تناول طعامك الآن أم تنتظر قليلاً؟...

وهمس لوقا بتلك النبرة من الحزن:

- سوف أتناول طعامي معكما.

لم يستطع لوقا أن يتحمل أن يجلس في مكانه؛ إذ أحس أن موجة من السخط والغضب قد اجتاحته، ولذا فضل أن يغادر مجلسه؛ ومن ثم فقد قام من مقعده واتجه إلى المرحاض مباشرة وأغلق عليه الباب، بعد أن قام بصفقه بصورة عنيفة معبرًا عن غضبه ومرارته.. وتقدم إلى المرآة المعلقة على جدار الباب ثم فتح فمه على مصراعيه، وأخرج صرخة احتجاج مكتومة عبّر بها عن سخطه على أسلوب الحياة التي تجافيه.. كان في حقيقة الأمر يولول من دون أن تخرج من فيه تلك الصرخات.. إن كل جسمه يحتج ويصرخ من دون أن يصدر عنه أي صوت.

وأخذ يطل من نافذة المرحاض على تلك المناظر الريفية التي تمر أمامه، وظل هكذا مدة طويلة، ثم خرج وعاد إلى المقصورة؛ حيث يجلس والداه..

كان والده قد أخرج تلك الساندويتشات التي قام بشرائها وابتدأ في عملية توزيعها، وقال للوقا:

- هذه لك.

ثم وجه كلامه إلى زوجته:

- وأنت..

وتناول لوقا قطعة من الخبز بها قطعة من اللحم البارد وعض فيها على أسنانه والغضب يكاد يعصف به، ولم تكن له شهية في تناول ذلك الطعام، ولكنه بالرغم من ذلك تناوله وهو ينظر إلى والديه وهما يتناولان طعامهما بهناءة وسرور وابتسامة.

وما كاد ينتهي من الأكل حتى شعر أن ما تناوله من طعام لم ينزل في بلعومه؛ وإنما ظل غاضبًا هو الآخر في حلقه.

سيطر الغضب على لوقا وأصبح كما لو أن جسده بأكمله قد صار يابسًا، وأن عقله قد صار مرتبكًا إلى الأبد، وكان ينظر إلى المناظر الطبيعية التي تمر أمامه على أنها لم تكن موجودة، وكان يشعر بثقل ذلك الطعام الذي تناوله وكأنه حمولة ثقيلة للغاية على معدته، وأحس أن هناك شيئًا ما بداخل معدته مغلق ومجلد بورق رقيق مملوء بالأشياء التي لم تمضغ جيدًا، صرة كبيرة شبيهة شبهًا غريبًا بتلك التي تقذفها الخادمات إلى القطط على أزقة الشوارع.

وكأنما أحست والدته أن ابنها ليس على ما يرام؛ فأخذت تتحسس جبينه خشية أن يكون مرجع ذلك إلى ارتفاع في درجة حرارته، ولكنها لم تجد شيئًا فنظرت إليه متسائلة، ولكنه لم يفصح عن شيء مما يجول في خاطره لها.

وصل القطار أخيرًا إلى محطته النهائية، وغادر لوقا وأسرته مقصورتهما إلى الخارج.. وما زال لوقا يشعر أنه على وشك الغثيان، وسرعان ما فعلها لوقا عندما اصطدم به أحد الناس خارج المحطة وهو يلتهم ساندويتشًا.. وما إن شم لوقا الرائحة المنبعثة من داخله حتى أسرع وأفرغ ما في جوفه من حمولة كانت عبئًا كبيرًا عليه، وسمع والدته تقول:

– كنت أعرف أنه ليس على ما يرام.

وفي نفس الوقت شعر بيد تسند جبينه، أما والده فقد كان يكتفي بأن يكرر بنبرة مطمئنة:

– لا شيء.. لا شيء...

أما لوقا الحانق الغاضب فقد بدأ بالعويل والبكاء، وبينما كان والديه يذهبان به وهو يبكي مهزومًا؛ كانت والدته تقول له بحنق:

– لماذا تبكي؟.. تكاد أن تصبح رجلاً وتبكي؟

ولقد بدا للوقا أن عملية التقيؤ على القطار كانت نوعًا من الانتقام من هذا القطار الذي أعاده إلى المدينة، إلى المدرسة، إلى الدرس، ومن والديه اللذين رفضا له فرصة التمتع بتناول طعامه بعربة الأكل بالقطار.

الفصل الثاني

وصل لوقا إلى المدينة، إلى الشقة التي شهدت ثورة غضبه القديم، ولكن ذلك الغضب قد أخذ شكلاً جديدًا بحكم العادة والسأم... وتحول هذا الغضب إلى نوع من الرفض والتخلـــي، ومع ذلك فلقد كان غضبه دومًا ودائمًا هذا الاندفاع الثائر، ولكنه قد عُلِّم بالانكـــسارات التـــي تحملها وقاساها فتحول إلى صمم ورفض دائمين. ولم يكن لوقا يعلم شيئًا عن أساليب المحاربة الطبقية، وإلا لما كان قد تأخر بالتعرف –فـــي الـــشكل المتخـــذ مـــن قبلـــه لثورتـــه ضـــد العالم– لمميزات الاضطراب.

لم يعد جسمه يتطلب اندفاعات مخربة، وأصبح مثل خيط مرن يرفض الامتـــداد بعـــد الآن فتركه وشأنه، وأغلب الأحيان وخلال الساعات الطويلة التي كان يقضيها بعد ظهر كـــل يوم أمام الطاولة في غرفته كان يفاجأ بأن النوم والنعاس قد أخذا طريقهما إلى جفونه.. هكـــذا دون أن يكون ذلك موعد نومه.. لقد كانت كل تلك الإغفاءات بدون أن يعلم مجرد إغفـــاءات سوداء.. فارغة.. لا أمل فيها ولا أمنية، مجرد غيبوبة تفاجئه وسط مذاكرته أو قراءته لأحـــد الكتب، ولم يكن ذلك الكلام الذي يقوله لنفسه:

– لسوف أتم قراءة ذلك الكتاب ثم أخلد إلى النوم.

لم يكن ذلك القول أكثر من مخدر للنفس، سرعان ما يزول أثره بعد أن يهاجمه النعاس الحقيقي، وبجهد كبير يكافح إلى أن يصل إلى سريره؛ ومن ثم فإنه يمدد ساقيه ويغط في النوم العميق.. كان يشعر من خلال ذلك النوم بنفس الإحساس والشعور الذي اجتاحه يوم القطـــار؛ شعور الانتقام.. حتى ولو كان من نفسه.

كان يعلم بأن لشعور الرضى هذا طبعًا مخربًا، وأن كراهيته للعالم وبغضه لـــه كـــان يعبر عنهما. ولو كان في بعض الأوقات يحاول بقوة مقاومة هذا الشعور والخمول؛ لكان فـــي النهاية أخبر والديه كما كان يفعل كلما كان مريضًا، ولكن الآن وبسبب هذا المرض كان يبدو عليه أنه يحرز إرادة في الماضي لم يكن يراها إلا ضعفاً، ولكي يوافق نفسه مع هـــذه الإرادة كان يشعر بلذة بالتخلص من حب الذات.

وبدا له فجأة بأن هذا السكون بعد أن قبل به كما هو؛ كان كافيًا لكي يشجعه ويزيد في يقينه بأنه كان يدرك بحرية وليس بالإكراه. وهكذا فإنه لم يكتف بعدم مقاومته لهذا الخمـــول، وبعدم إخبار والده ووالدته؛ بل بدأ يحدثهما بشتى الوسائل، وكان يتعمد أن يقرأ الموضـــوعات الطويلة المملة، أو كان يتيه في مواضيع لا تهمه لا من قريب أو من بعيد.. كل ما يهمه هـــو أن يقطع الوقت، وبالكاد كان يشعر بأن عينيه قد غلبهما النعاس، ثم تكبر تلك الحالـــة عنـــده وتصل إلى رعشات الخمول التي تسري في ظهره إيذاناً بالشلل الكامل في أهم أجزاء الحركة

الميكانيكية في الجسم، ويبذل مجهودًا كبيرًا لكي يصل إلى فراشه؛ ومن ثم تنمو الحالة أكثر فيلقي بجسده على ذلك الفراش الوثير ويقول لنفسه بعد أن يصل إلى تلك الحالة:

- كان يجب علي أن أقاوم... كان يجب علي أن أذاكر.. كان يجب علي أن أترجم.. كان يجب علي أن أقرأ...

لم يكن النوم إلا وسيلة.. إذ إنه لا يمكن لامرئ أن يستمر في النوم إلى الأبد إلا إذا كان ميتًا... أما الغاية النهائية والمحصلة من ذلك النوم فكانت الثورة ضد الدروس، ولم يتأخر لوقا عن التفتيش لإيجاد طرق جديدة لبلوغها. كان في السابق يعود إلى البيت بعد الدروس بدون حماسة يفكر في ساعات المطالعة التي كانت تنتظره. أما الآن فقد تبدل الحال بعد أن أصبح الوضع يتطلب نزع الصفة الإلزامية للمطالعة، وإزالة الأهمية الكامنة فيها؛ إذ كان يتراءى للوقا بأنه ينظر مترقبًا إلى هذه الساعات وهي تقترب برغبة حية، متقدة، مثل شخص أشرف على القيام بمهمة مطابقة تمامًا لميوله.

كان يغادر المدرسة بعد انتهاء دروسه، ويستأذن من رفاقه ويعود إلى منزله ببطء، ثم يظل وحيدًا في ساعة الغروب يرقبه ويلاحظه، وهو ينحدر في الأفق إيذانًا بحلول الليل.. كانت لديه فكرة بأن الناس جميعهم يخرجون من بيوتهم في هذه الساعة، وكأنهم كانوا ينتظرون هذا الليل لكي يروحوا عن أنفسهم بعد عناء النهار وشقائه، وكان هو يتلذذ أنه عكس هؤلاء الناس جميعًا ومميز عنهم؛ إذ كان يعود إلى منزله في تلك الساعة بالذات، وما إن يصل إلى الشوارع المقفرة الخالية من روادها حتى يكون الظلام قد غشي الكون بحلته السوداء فيدخل لوقا إلى شقتهم حيث يقيم.

وفي تلك الساعة تكون الشقة خالية إذا استثنينا وجود العاملة التي تعمل عندهم، أما والده فإنه يكون مشغولاً في مكتبه، بينما تكون والدته في زياراتها اليومية إلى أصدقائها من سيدات الحي، فيذهب هو إلى حجرته فيغلقها عليه ويجلس إلى مكتبه، لقد تخيل فضلاً عن النوم طريقة أخرى لكي لا يدرس؛ طريقة أطلق عليها بلغة غضبه: "التمرين على إضاعة الوقت".

كان هذا التمرين عبارة عن القراءة والكتابة بصورة آلية دون انقطاع، وهو يحاول أن يصبح غريبًا عما يكتبه؛ أي إنه يكتب أشياء دون معنى، وكان يشعر بلذة وهو يلاحظ بأن الكلمات في حركات تقدمها وتأخرها كانت تظل غير مفهومة وخالية من كل معنى.

وأحيانًا كان يقرأ بصوت مرتفع ويلاحظ بارتياح أن الصوت لم يكن يشرح الكلمات؛ بل كان يضيف إليها معنى غير معقول، كان يعلم أن في وسعه بقليل من المجهود أن يجعل صوته غريبًا عنه، وهو يكرر ذلك بقراءة الكلمات بنبرات مختلفة على طريقة السلم الموسيقي.

وينتهي من هذا التمرين عادة إلى الدوار المعتاد لأعصابه، ويشعر بأن ذلك يبدأ من أسفل قدميه حتى ينتهي إلى أن يعم سائر جسده كله، فيسير إلى فراشه مترنحًا ويرمي بنفسه إليه ويغمر نفسه بفيضان النعاس يغشيه فينام ساعة أو ساعتين ثم يفيق ليكتشف بلذة أن الوقت قد مضى وأن المطالعة لم تعد مجدية ولن تمكنه من معرفة دروسه في المدرسة.

تلك الدروس لم تكن مقبولة لديه؛ لأن ذلك الفصل والمعلم كانا غريبين عنه لأنه منذ البداية كان غارقًا في جو فارغ لحقبة غير مغلقة وغير مقبولة وكان من السهل عليه أن يملأ عينيه وأذنيه بنوع من الضباب الكثيف، يضيع فيه صوت المعلم عندما يشرح الدرس الذي يصبح أحيانًا نوعًا من الطلاسم السحرية التي يستعصي عليه حلها أو فك رموزها.. بل إنه كثيرًا ما تخيل نفسه ميتًا فقد حاسة الكلام، يسمع أصواتًا غير مفهومة ومبهمة، وعلى ذلك فهو لا يريح نفسه فقط من عدم سماعها؛ بل إنه أيضًا ينظر ببلاهة إلى كل ما يجري أمامه.

وفيما هو في إحدى هذه الحالات إذ سمع صوت معلمه يقول له:

– مانسي، هل يمكننا أن نعرف ما تفكر به؟

ورد لوقا:

– أنا؟ لا شيء..

فعلق المعلم على قوله:

– هذا ما يبدو عليك.

كان للوقا معزة خاصة عند أساتذته؛ إذ كان من الطلبة المتفوقين في دراساتهم، أما الآن فهو على النقيض كلية، رغم أن الدراسة لم تنتظم إلا منذ شهر واحد فقط، ولكنه بدأه بالتقهقر إلى الخلف، وكان يحصل على أقل الدرجات والعلامات الشهرية بين زملائه، وكان يتساءل عن سبب سلوكه هذا الطريق، فكان يلاحظ بأنه لم يكن يجد الأسباب القوية لتفسير موقفه هذا.. كل ما وجده نوع من علامة الشرف الغامضة الممزوجة بأنانية قاتلة؛ تلك العلامة السلبية التي لا أساس لها.. وفيما هو ينتظر الجواب وسط هذه الأوضاع المعاكسة كان الوقت يمر.

الفصل الثالث

إذا كانت محبة لوقا لوالديه لم تكن تجعلـه يتعلـق بالحيـاة التـي -إن جـاز لنـا التعبير- يهدمها ويفنيها، ولم يكن ليطالب بتحمل مشقة هدمها، إلا أن هناك أشياء أخرى كانت تبدو له حية وضرورية، رغم أنه ترتب عليه إدخالها ضمن مخطط التخريب الذي كان يجري ويتكرر يومًا بعد يوم.

فمنذ نعومة أظفاره وهو صغير كان قد كرس نفسه للأشياء التي كان يملكها، فأحبهـا بغيرة واختص بها لوحده حتى إن أهله -مثلما يحدث في أغلب الأحيـان- حـاولوا بجميـع الوسائل تشجيعها وتنشيطها، فاللعب التي أعطيت له في السنين الأولى من عمره كانت مرفقة ببعض الكلمات من الإعجاب المقصود، وتحتوي على حكم ودعوة لغريزة التملك عنده:

وكم من مرة تكررت كلمة:

- انظر إلى هذه اللعبة كم هي جميلة.

تكررت كثيرًا عند تقديم الألعاب الأكثر مهارة والبسيطة؛ مثل لعبة الميكـانو (وهـي مجموعة من الألعاب الميكانيكية)، أو مسرح العرائس. ونفس الأقـوال والأفعـال وكلمـات الإعجاب والدعوة لغريزة التملك كانت تتكرر، عندما أهدي لأول مرة كتب وقصص الجنيات الصغار.

كان لوقا يحب بصورة خاصة مسرح العرائس المذكور، حتى وله به وعشقه؛ فكـان الوالد يغذي المسرح باللعب الجديدة، حتى إنه كان خلالها يحضر له مرة أو مرتين على الأقل لعبة أو لعبتين في كل مرة، وقد تعود والده أن يقول له في كل مرة جملاً عن عدم الاهتمـام المقصود دون أن يرفع عينيه عن الجريدة التي كان منهمكًا في قراءتها:

- لقد أحضرت لك بعض الأشياء التي تفرح بها.

ويرد لوقا في لهفة على والده:

- أين هي يا بابا؟.

ويقول له:

- إنها في جيب معطفي.

كان لوقا يصبح في قمة سعادته ويمتلئ بالفرح، وبنفس الوقت يخامره شـعور مـذل؛ خوف وقوعه على مادة تكاد تكون غير شرعية، ثم إنه يتجه بسرعة إلى مدخل الدار وفعـلاً يجد هديته في جيب معطف والده المعلق على المشجب، وهي ملفوفة بـورق مـن الحريـر الأحمر الجميل.

وما إن يقوم لوقا بفك تلك الورقات من الحرير بأصابعه التي فقدت القدرة على الصبر فغدت متشنجة؛ حتى تنكشف له هدية والده وهي عبارة عن كرة أو عروسة أو بندقية للرماية.

ويسرع لوقا إلى والده ويقبله ثم يركض إلى غرفته ليضع اللعب الجديدة بجانب اللعب التي كان يملكها من قبل في خزانته التي يحتفظ بها بلعبه، ويأخذ في رؤية ما يملك من هدايا وكأنه يراها لأول مرة.

حاول أن يلعب بمسرحه الصغير الذي اخترعه أمام ديكور ذو مناظر تمثل قصر ملك أو غابة أو سجن، ولكن فيما بعد عشق جميع العرائس ليحصل على مجموعة كبيرة منها تمكنت من التغلب على ذوقه، فاكتفى بترتيبها في الخزانة كرجل بخيل يكدس المال في جوف خزانته.

كان يتأملها وهو راكع على الأرض يعدها، ثم يقوم بعدها ثانية يداعبها ويلاعبها ويناجيها، ثم يتأملها طويلاً ويعود فيصففها.. كان هذا من عاداته في ممارسة لعبه بالعرائس.

كان يشعر بالارتياح الكبير وهو يقوم بهذه التسلية التي تغمره حتى قمة رأسه؛ هذا ما كان يشعر به من تأنيب الضمير الغامض؛ لأن عشقه لمسرح العرائس دام طويلاً، ولكنه في النهاية تغلب على تلك المحبة لعرائسه، ولم يعد يلعب بها ولا يتأملها؛ ومن ثم ترك الغبار يكسوها داخل دولابه.. أما والده فإنه لاحظ أنه لم يعد يبدي اهتمامه بلعبه كسابق عهده؛ ولذلك توقف عن إهدائه تلك الهدايا.

وبعد المسرح تعلم الميكانو من والده وكيفية استعماله، بعد أن يجلس على أرضية الغرفة، وأخيرًا عندما تقدم في السن جاء دور الكتب وقصص المغامرات، ومجموعة الطوابع، ولوازم الرياضة. وفي كل مرة كان يحدث له نفس التطور الفكري؛ فمن التسلية البريئة إلى شعور الغيرة وخمود التملك، ومن التعلق بالشيء إلى الاشمئزاز منه، ولكن هذا القرف للأشياء لم يصبح قويًّا لدرجة دفعه للتنازل نهائيًّا عن الأشياء التي لم يكن يهمه أمرها بعد محبة الامتلاك العاصفة التي كانت تخلق بينه وبين الأشياء التي كان يحبها سابقًا –والتي أصبحت الآن مهملة– رابطة غامضة من الغيرة والخوف، وبسببها رغم كونه كفَّ نهائيًّا عن استعمالها والتمتع بها، وحتى إنه كان أحيانًا ينسى وجودها، ولم يقرر أبدًا إعطاءها لأحد أو إتلافها.

كان يحتفظ بهذه الأشياء وإن كانت قد تلفت أو كسرت، وهكذا فإن رفوف خزانته كانت مليئة بمجموعة ألبوم الصور المصغرة التي عفا عليها الزمن فأحال لونها الأول ومزق أوصالها، فغدت قطعًا متناثرة مع علب الميكانو النصف فارغة، أما الكتب فكان يزداد عددها دائمًا وبدون توقف مع مجموعة الطوابع التي كان يضيف عليها ببطء طوابع جديدة.

وفيما بعد عندما تبين والده أن ابنه قد أصبح شابًا يافعًا حدد له راتبًا شهريًّا، وكان ذلك عملاً آخر من حب التملك؛ إذ إن لوقا كان يقبض مرتبه الصغير في أول كل شهر أما والده فقد كان يتلقى مقابل ذلك القبلات من ابنه اعترافًا بهذا الجميل على خده، ولم يمض إلا القليل حتى لاحظ لوقا بأن المال يثير في نفسه شعور التملك بصورة أكثر وأقوى من الألعاب والأشياء الأخرى؛ إحساس خالٍ من كل فكرة للعب أو للتسلية، كما كان غير قابل لتفهم كتبه كليًّا.

كان في البدء ينفق هذا المال في شراء الحلوى والكتب، ولكن فيما بعد وقد اكتشف أنه بإمكانه أن يحصل على الحلوى والكتب من أهله بدون أن يصرف شيئًا من الكنز الذي يمتلكه، ودون أن يدري أين ينفق نقوده التي ادخرها؛ كان يدخر أمواله دون أن يدرك ماذا يشتري أو لأي غرض يدخر نقوده. وبالحقيقة إنه لم يكن يعرف أو يحس القيمة الشرائية لهذه النقود؛ مما يدل على أنه كان واقعًا تحت نفس التأثير الغرائزي الذي جعله يجمع العرائس لتكون لديه مجموعة كبيرة من هذه العرائس، إلا أن الموضوع حينذاك كان يتعلق بأشياء لها صفة وتعدد واختلاف في الشكل والهيئة تغلب عليها الكمية.

أما الآن والموضوع يتعلق بالمال، وهذا ممثل بأوراق نقدية قبيحة أو متماثلة شبيهة؛ لم يبق إلا الذكاء الذي ينقص الهاوي لزيادة الكمية والمحافظة عليها وتنميتها.. وهكذا وبدون أن يدري زلق بذوقه من الحيازة المرة إلى البخل.. ولكن هذا البخل بدوره كان بريئًا وساذجًا يشبه الوقاحة لدى الأطفال الصغار الذين تدعهم أمهاتهم يركضون عارين على شاطئ البحر.

وقادته سذاجته في جمع المال لكي يقول لوالده إنه يريد أن يصل بمدخراته إلى مبلغ الألف جنيه. فأجابه الأب مشجعًا إياه ثم قال له:

– إذا كان ذلك ما تريد فعليك أن تضع النقود في صندوق التوفير.

وأخذ في شرح فوائد صندوق التوفير ومميزاته، فضلاً عن أن هذه الطريقة مأمونة، أضف إلى ذلك أن نقوده سوف تزداد بانتظام بدون أن يهتم لرقابة تلك الأموال، كما تنمو النبتة الصغيرة.

وعند ذلك شعر لوقا بخجل لا يدري كنهه بعد أن أصغى إلى مقترحات والده، وهو يتخذ حجة عدم وجود النقود الكافية لكي يقوم بفتح هذا الحساب في البنك؛ لذلك رفض عرض استلام كتيب صندوق التوفير، إلا أن شعور الخجل انطفأ في الحال تقريبًا كوميض برق، وهكذا أخذت القطع النقدية والقطع الفضية والأوراق تتكدس في خزانة مكتبه بتراكم مستمر.

إن تضحية الأغراض والمال رغم التفاعل الماضي المنسي من الشبع والقرف والخجل قد تهيأت له الآن فقط معرفة كونها مهمة، وإدراك معناها؛ فلقد توصل بثورة جسده الفاتر إلى

هذا الرفض للدروس، ولكنه كان يشعر بالندم لعدم تمكنه من الوصول إلى تطليق الملكية دون أن يذوق الاضطرابات والحيرة والألم التي توحي له حرمانًا قاسيًا وغير محق ظاهريًّا.

ومع ذلك فإنه كان قد تعشق كتبه ومجموعة طوابعه ولوازم الرياضة، رغم أن كل جزء من تلك الأشياء الصغيرة التي أودعها الدرج كانت تمثل له تضحية شيء ما بإمكانه شرائه.

هذه الأشياء وهذا المال لم تكن مجرد أغراض ومال فحسب؛ بل كانت أيضًا خيوطًا حية وراسخة من النسيج الذي تربى عليه، ولو كانت هذه الأشياء ميتة لهجره الحب الذي كان في الماضي قد أحياها، كما هي حالة والديه بشكل ما، ولكان هدمها وخربها بلا فائدة؛ ولكن العكس هو الصحيح، وقاعدة هذه اللعبة المرة للعصيان لا تقبل استثناء ما.

وبعد أن أجل هذه العملية عدة مرات؛ قرر في أحد الأيام تنفيذها نهائيًّا؛ فلقد كان بين رفاقه طالب رزين تلوح على قسماته ملامح العلم والكمال؛ كأنه طالب في المرحلة الثانوية، قدِّر لثقافته أن تدوم طيلة الحياة. كان ذلك الطالب يدعى بولي، وكان هذا الفتى بولي أقوى طالب في الفصل من ناحية التفوق المدرسي والعلمي، وكان دائمًا حاضر البديهة في كل الدروس وكل المواد، وهذه المقدرة والقوة بالمعرفة كانت تنبئ عن نفسها بسهولة وبدون أي مجهود، ثم تبدو غامضة للوقا، كما لو كانت نتيجة لبعض عمليات الشعوذة؛ لأنها كانت تختلف عن ذهنه الذي ينسى ويخطئ.

وفي يوم من الأيام دعاه لوقا لزيارته بعد الظهر في منزله، فرد عليه بولي:

- يجب أن تعلم أنه لا يمكنك أن تعتمد على أحد في تأدية واجبك المدرسي، وحاول أن تعتمد على نفسك يا عزيزي لوقا.

وأجاب لوقا بعد أن تخلي عن كتمانه:

- إن الموضوع لا يتعلق بواجباتي المدرسية على الإطلاق.

وذهب إليه بولي حسب اتفاقهما وهو يظن أن لوقا إنما يخدعه، وسوف يفاجئه بكراسة واجباته. وبعد كلمات الترحيب الملحة قال له لوقا:

- أريد أن أهديك مجموعة طوابع خاصة بي.

وما إن تم لوقا هذه الكلمات حتى ذهب إلى الخارج وعاد وهو يحمل مجموعة من الطوابع داخل أربعة كراسات لحفظ الطوابع مجلدة تجليدًا أنيقًا في قماش أحمر، إلا أنه لم يقبلها من لوقا وقال له:

- لِمَ تعطيني هذه الطوابع ونحن لم نكن أصدقاء وأنا لم أكن أعرفك من قبل؟

فأجاب لوقا بمنتهى الهدوء:

- أعتقد بأنه ينبغي علي أن أغادر البلاد لفترة؛ ومن ثم سوف أحتاج التصرف في مثل هذه الأشياء التي أملكها، وأنت خير من أستطيع أن أهديها إليه لأنك الوحيد الذي سوف يمكنه أن يحافظ عليها.

وراح بولي يقلب هذه الطوابع وهو غير مصدق أن تكون ملكه، وتملكه الإغراء ولكنه في نفس الوقت كان يحاول أن يظهر أنه لا يهتم بمثل هذه الأشياء، إلا أن رغبته الملحة كانت تسبقه للإفصاح عن مكنون رغبته.

وما لبث أن قال للوقا:

- سأعطيك شيئًا مقابل تلك المجموعة من الطوابع، ولكنه بالتأكيد لا يساوي قيمتها.. ولكنه على كل حال شيء بسيط.. ماذا تريد مني؟

أجاب لوقا:

- أنا لا أريد شيئًا.

ولكي يغير مجرى الحديث؛ راح يقلب صفحات الألبوم متظاهرًا برغبته في الإدلال على الطوابع النادرة التي يحتوي عليها ألبومه، ولكنه في حقيقة الأمر كان يريد أن يتأكد فيما إذا كان فراقها غير مؤلم له.

ولاحظ لوقا على نفسه وهو يقلب صفحات كراسة الطوابع أنه يشعر بالألم وهو يختلف كثيرًا عن الألم الذي كان ينتظره.. لقد كان من المنتظر أن يتألم بسبب البخل، وقد اكتشف بجانب ذلك أنه كان يتألم على نفسه مشاركة لها في أحزانها.. لقد كان بالفعل عنيفًا ضد نفسه، ولم يكن يستطيع الاستغناء عن التفكير كما لو كانت شخصيته قد انقسمت إلى قسمين: القسم الأول شق متروك وملقى على الأرض يدافع عنه بضعف ضد القسم الثاني الذي وقف بالمرصاد لقسمه الأول وراح يكيل له سيلاً من الآلام.

قال لوقا وهو يغلق كراسة الطوابع:

- هل تريدها أم لا؟

وقال بولي بكل حماس:

- نعم بكل تأكيد.

ورد عليه لوقا:

- انتظر إذن حتى أقوم بلفها لك.

وفيما هو يغادر الغرفة تناول جريدة من فوق أحد الرفوف. وفكر بأنه عندما يعود إلى غرفته سيعلن إلى بولي أنه إنما كان يمزح معه فقط، وشعر بالألم السحيق إذا تنازل عن هذه المجموعة وتخلص منها وردد في نفسه:

- ماذا علي إذا احتفظت بهذه المجموعة وماذا يضيرني.

ولم يتردد بعد أن ظهر حنين خفي لمجموعة طوابعه.

تناول الجريدة وعاد إلى الغرفة، وكان بولي يتطلع إلى المجموعة بإعجاب، ولكن لدى دخول لوقا أغلق كراسة الطوابع بسرعة كما لو أنه اعتقد أنه إذا ظهر أنه معجب بتلك المجموعة فإن لوقا سوف يعرض عن إهدائه تلك المجموعة.

وسأله لوقا:

- ولكن أليس لديك مجموعة من الطوابع؟

أجاب بولي بحذر:

- نعم ولكنها ليست مكتملة؛ إذ ينقصها الكثير من هذه المجموعة.

وحصل بولي على مجموعة طوابع لوقا وهو غير مصدق أنه حصل عليها، وما إن غاب بولي حتى تساءل لوقا عن كيفية التخلص من كتبه.. لقد كان لديه عدد لا يستهان به من الكتب التي كان يحبها أكثر من الطوابع، بدرجات كانت بغالبيتها من كتب المغامرات، وأيضًا قصص بوليسية وتاريخية، وكان قد شعر نحوها بنوعين مختلفين من الإحساسات.

لقد أحب كل واحد منهم على حدة بسبب ما كان يحتويه، وبنفس الوقت كان قد أحس بمحبته كلها غيرة لكتبه باعتبارها أشياء يمكن تملكها بمحبة، كانت تستمد من البخل الكثير من أوصافها؛ إذ إنها كانت تولد له لذة حيرى أكثر من أي شيء كان يملكه.

لذلك وفي بعض الأحيان كانت قد واتته الرغبة المتسلطة لملء رفوف مكتبه الثلاثة، ولما لم تكن القصص تكفي لملئها، وقد أضاف إليها الكتب التي أهديت له بمناسبة الأعياد وكتبه المدرسية. هذه الكتب المختلفة كانت بمجموعها قد وصلت إلى رقم لا كسور فيه. لقد قام بمراقبة هذا الرقم ومعرفة ما إذا كان صحيحًا؛ فكان يعيد الكتب إلى الأرض، ويبدأ في ترتيبها وَصَفِّهَا مبتدئًا من القطع الكبير ومتدرجًا نحو القطع الصغير، فبلغ العدد ثلاثمائة كتاب.

وإذا كان من السهل على لوقا أن يتخلص من كراسات الطوابع الخاص به، وتلك التي كان ترتيبها لا يشغل حيزًا كبيرًا من المكان؛ فإن الصعوبة كانت في كيفية تفريغ المكتبة دون أن ينتبه والده إلى ذلك، وفكر بكيفية العمل لكي لا يلاحظوا أن مكان الكتب شاغرًا.. وبعد أن

فكر طويلا قرر أن يلجأ إلى حيلة تسمح له بتخريب مكتبته دون إيقاظ الشك حول سبب ذلك ودون اعتراض والديه.

وفي أحد الأيام ذهب إلى أمه فقال لها:

- ماما، أريد أن أبيع جميع كتبي.

فقالت الأم بدهشة:

- تبيع جميع الكتب؟ لماذا؟

- لقد قرأتها عدة مرات وأريد أن أبيعها وأشتري بقيمتها أسطوانات.

كان هذا النوع من الحيلة مطلوبًا في هذه المناسبات، فلم يكن والده ليرضى بذلك، خاصة وأن هذه الأعمال لم تكن لمصلحة شيء جديد يمكن شرائه واقتنائه عوضًا عن المقتنى السابق الذي تخلص منه؛ إذ إن الملكية بنظرهم لن تقدر أن تخدم إلا ملكية جديدة، وفضلاً عن ذلك كان لوقا يعلم بأن والدته تحب الموسيقى ولا يداخلها السرور إلا من الرغبة التي يطالب بتحقيقها.

ولكنها قالت له بعد فترة:

- قيمة الكتب لا تكفي...

خاف لوقا من فكرة قيام والدته بشراء مجموعة الأسطوانات نظرًا لمحبتها للموسيقى بدون أن تضحي بالكتب، لقد خاف من ذلك وخشي عرض الفكرة لشرائه من ماله الخاص رغم تأكده بأن كرمًا كهذا أو أي نوع من الكرم لم يكن له وجود في عداد مبادئها التربوية.

لذلك أضاف بعجلة:

- سأضيف إليها ما اقتصدته فلو جمعنا قيمة مبيعات الكتب مع أموالي المقتصدة لأمكننا أن ندفع قيمة الأقساط الأولية للحاكي فضلاً عن شراء بعض الأسطوانات.

وما إن حصل لوقا على موافقة والدته حتى أحضر تاجر الكتب الذي قـُم بفحصها الواحد تلو الآخر، وخلال هذا الفحص والتدقيق تساءل لوقا مجددًا كما فعل عندما أهدى مجموعة طوابعه إلى بولي: هل تكفي مفارقة كتبي العزيزة.

ولاحظ حينذاك بأن درجة آلامه قد هبطت كثيرًا، وفكرة اللعب المسلية وثنائيته ساعداه على التضحية، ولم يكن تاجر الكتب بدوره أقل اهتمامًا من بولي؛ إلا أنه كان يحاول تقليل قيمة الكتب والحط من قدرها، وهو يكرر قوله إنها كتب قديمة.ز إلا أن لوقا راح يسد عليه الباب بطريقة محنكة حتى اتفقوا، وقال صاحب الكتب:

- ليست هذه تجارة بالغة الأهمية.. وعلى كلٍّ يمكنني أن أعطيك سعر الجملة.

سأله لوقا:

– كم هو السعر؟

وقال صاحب المكتبة رقمًا.

قال لوقا:

– إنه لا يساوي شيئًا أبيعك الكتب بضعفه.

أجاب التاجر الشره:

– لا.. إن هذا سعر مرتفع.

تردد لوقا قليلاً وأتته فكرة عرض بيع الكتب جملة مع اللعب ومستلزمات الرياضة على التاجر وهكذا سيمكنه أن يتخلص دفعة واحدة من جميع ما كان يملكه. فقال له:

– اسمع، سأتنازل لك عن أشياء أخرى لقاء المبلغ الذي حددته لك وللنهِ هذه العملية ما رأيك؟

وقال التاجر:

– ما هي تلك الأشياء؟

توجه لوقا إلى غرفته وفتح درج مكتبه، وأخرج منه كرة كبيرة وقفازان جديدان للملاكمة لم يستعملا بعد، ومركب شراعي جديد بحجم كبير، ومسرح العرائس الذي يحبه.

وقال تاجر الكتب:

– لست بائع أشياء مستعملة.

وبالرغم من أنه قال هذه الكلمة إلا أن الجشع المسيطر على التجار قد ظهر عليه من جراء هذه الصفقة.

وقال لوقا:

– إن هذه الكرة فقط كلفتني قيمتها ما تعرضه أنت عليَّ في كل هذه الأشياء.

وأخيرًا انتهى تاجر الكتب إلى القبول ودفع الثمن المتفق عليه، وفي اليوم نفسه أرسل شخصًا آخر ومعه صندوق وضع فيه الكتب والأغراض الأخرى وذهب بها، أما لوقا فقد ظل وحيدًا ينظر إلى مكتبته الفارغة. لقد حقق ما قاله سابقًا لبولي بشأن التوطئة لسفر بعيد وطويل؛ وهذا هو ما فكر به بعد أن باع كل ما كان يملكه.

ولكن رغم ذلك شعر بالفرح أمام منظر الفراغ في غرفته.. لم يكن ابفرح من بيع أغراضه قبل السفر، ولكنه أحس بسرور ذلك الشعور الذي يحس به المسافر عندما يصل إلى أرض خالية وغير مأهولة؛ حيث يعلم أنه ليس هناك من ينتظره.

وفي ذلك اليوم اشتغل أقل من العادة.. كانت ذاكرته تعود به إلى الكتب، إلى مجموعة الطوابع، إلى لوازم الرياضة، وكان يشعر بالرضى العجيب؛ إنه رضى يكاد يكون لذة جسدية.

كان يتخيل أن يولي فكر به وقال عنه بأنه مغفل غبي، وأن صاحب المكتبة قد هنأ نفسه بهذه الصفقة المربحة التي قام بها، وكان مسرورًا لأن هذين الشخصين قد اعتقدا بأنهما تمكنا منه. وبنفس الوقت كان يشعر بإحساس لا يدري كنهه من الخفة والعزاء كشخص حمل لمدة طويلة حملاً ثقيلاً، وشعر فجأة بأن هذا الحمل قد ألقي عن كاهله.

وراودته فكرة المال؛ كان يجب أن يستغني عنه وأن يتخلص منه، وبنفس الوقت يبرر بشكل ما عدم شرائه الأسطوانات.. فاختار وقت الغداء ليعلن بنبرة من يحبس دموعه وبشكل من الهدوء والقلق:

- يجب أن أخبركم بشيء.. ولكن تعهدوا أنكم لن تحزنوا.

فنظر إليه والده بقلق وقال له:

- ماذا حدث؟

ولما رأى القلق باديًا على محياهما قال:

- هذا الصباح كنت راكبًا الأتوبيس وسرقت مني حافظة نقودي، لا أدري أسرقت أم أنني فقدتها، المهم أنني لم أعثر لها على أثر، لقد كان فيها كل ما أملكه من مال وأيضًا ذلك المال الذي كنت أدخره لشراء مجموعة الأسطوانات والحاكي.

وانهالت عليه الاستفسارات من والديه:

- كيف؟ ولماذا؟ وأين؟.

وخلال مناقشته مع والداه أشفقا على حالته الصحية لفقدانه المال وقال له والده:

- أنا على استعداد لدفع قيمة المبلغ المسروق؟

أما الوالدة فقد كانت تعارض تلك الفكرة وقد تمسكت بحجة واهية تخفي تحتها البخل المسامر في أعماقها وهي أن هذه الخسارة الفادحة سوف تكون درسًا له في المستقبل.

وكان لوقا يحس في باطنه بأنه لو أصبح رأي الأب المسيطر مغلوبًا على أمره أمام رأي الوالدة لكان لديه أضعاف المبلغ الذي كان بحوزته؛ بل سيكون ملزمًا بشراء حاكي، ويكون إذ ذاك عرضة لشعور بالمحبة لغرض جديد مغرٍ وساحر، وستكون مجازفته شديدة؛

لذلك تابع المناقشة بقلق زائد، وعندها لم يبق لديه أمل إلا في لين والده وسلبيته. وفعلاً ففي النهاية تمكنت والدته من انتصار رأيها، مع التحفظ فيما لو كان تلك العلامات المدرسية التي يحصل عليها لوقا في المدرسة في الفصل الأول جيدة فإن أهله سيقدمون له الحاكي والأسطوانات هدية منهم.

أما لوقا وهو متيقن بأن علاماته ستكون مخجلة؛ فقد ابتسم مطمئناً.

الفصل الرابع

سأل لوقا نفسه ذات يوم لماذا أفعل ذلك؟ فجاءه الجواب ذات يوم بطريق الصدفة إثـر حادث بسيط.

ففي أحد الأيام انتهت الدروس قبل الوقت المحدد بساعتين لمرض طارئ ألـم بأحـد بالمدرسين، فخرج الطلبة ولوقا معهم، ولما صار في الشارع تقدم منه أحد رفاقه وهو يحمـل معه كرة قدم تحت إبطه. كان هذا الولد غير محبوبًا من لوقا وخصوصًا بسبب هيئتـه غيـر المنتظمة المزرية، وأيضًا كان كثير السمنة متردد الأنفاس له خط أسود رفيع يظلل شفته العليا وخديه، وكانت تقاطيعه التي غرقت في الشحم تلقي شكلاً غير مريح عليه.

قال له وهو يلهث وقد بدت على ملامحه الجدية:

– أتريد أن تلعب معنا.. نحن فريقان سنلعب ولكن ينقصنا حارس مرمى.

كان لوقا يحب تلك اللعبة كثيرًا.. ولكنه لا يجيدها.. ولم تعجبه تلك الدعوة من ذلـك الفتى السمين، وكان أول ما راوده هو القبول، ولكن ممانعة خفية جعلته يغير من رأيه فقال:

– آسف يجب أن أعود إلى البيت.. ربما مرة أخرى.

ولم يضع الفتى السمين وقته في البحث عن آخر؛ إذ إنه سـرعان مـا وجـد بغيتـه وصاح:

– ماريو... هل تريد اللعب معنا؟

رأى لوقا ذلك الأخير يقف ويتكلم مع ماريو ثم تحرك اللاعبون والتفوا جميعًا حـول الولدين واتجهوا إلى مكان اللعب. وانتقلت الكرة منه إليهم وسرعان ما انطلقت فـي الهـواء وشهقت صرخات اللاعبون وهم يجرون وراءها وبدأت المباراة حامية الوطيس.

كان الشارع المؤدي إلى المدرسة طويلاً ومستقيمًا وخاليًا مـن المـارة، تحـيط بـه البنايات، وابتعد الأولاد وتفرقوا وسط صف طويل من النوافذ المطلة على الأسـفلت اللامـع، وهم يتخاطفون الكرة في يوم صافٍ تنيره شمس يوم دافئ.. أما لوقا فقد ظل يرقب هو وبعض من يقع عليه الاختيار للعب هؤلاء الأولاد وهم يثرثرون ويقفزون بمرح وسـعادة وراء تلـك الكرة، وكان لوقا ينظر إليهم برضاء مرير وهم يبتعدون.. ورغم أن هذا الرضى المر لم يكن جديدًا عليه؛ فإنه تمكن بجهد مرير أن يتذكر بأي مناسبة كان قد شعر به سابقًا. وأخيرًا تذكر، فلقد كان هذا الرضى هو الذي أيقظ فيه الشعور بهدم قضية دروسه وتنحية المطالعة اللازمـة للاستذكار.

وقد أثار هذا الاكتشاف في مخيلته أفكارًا غزيرة سـريعة متوهجـة، جعلتـه يغـرق بالتفكير وهو ينظر باتجاه لاعبي الكرة، وفجأة طرأت على ذهنه فكرة وخامره شـعور بـأن

اللذين يبتعدون عنه ليسوا رفاقه بل طفولته التي انفصمت عنه. كان الأولاد يلعبون على الأرض الخضراء بينما هو يفكر بالابتعاد عن لعبهم إلى الأبد، ولكنه قد أدرك السبب الذي أهاب به وهو يرى رفاقه يبتعدون، ويصغر حجمهم تدريجًا في نهاية الشارع الخالي، وأخيرًا قذفوا الكرة في شارع جانبي واختفوا. عند ذاك توجه إلى منزله بعد أن قام بالتغلب على أفكاره المخدرة.

وفي الأيام التالية تراءى له بأن الاكتشاف الذي أحس به وهو يقارن بين رفضه اللعب بالكرة، ورفضه الدروس كان قد توطد، وأصبح عميق الغور، ولم تكن الفكرة دقيقة التحديد؛ بل كانت اتجاهًا منحه الشعور النهائي بالقرف والثورة المبعثرة دون ترتيب، وكان يعتقد بأنه يبغض الدروس فقط، أما الآن فقد تأكد له بعد رفضه دعوى الولد السمين بأنه كان يبغض أشياء أخرى، ولكن ما هي هذه الأشياء؟ وبعد أن فكر مليًّا اكتشف بدهشة بأن عداوته لم تكن موجهة ضد مظهر من مظاهر الحياة فقط أو أكثر؛ بل ضد مظاهر الحياة كلها.

إذن من المعقول محاولة العثور على موقف طبيعي مفقود انطلاقًا من العصيان وفق تصميم منطقي رفيع، ومنذ ذلك الوقت كان يقوم بالعصيان وعدم الطاعة في الحقل الدراسي باعتباره القسم الأكبر ثقلاً والأكثر بطلانًا في حياته.

أما الآن وبعد حادثة اللعب فقد اكتشف أنه من الممكن توسيع نطاق هذا العصيان حتى يشمل ميادين أخرى، تمكنه من تطبيقه على أشياء أخرى لم يفقه لها وجودًا ولم تخطر بباله قبل ذلك الوقت، مثال ذلك تطبيقه على شعور المحبة وعلى ما يشغله ويقلق فكره: الحياة.

وفي يوم من الأيام خرج لوقا من منزله وهو يحمل في جيبه بعض النقود.. كان ذلك اليوم يوم سكوت عاصفة شديدة استمرت لعدة أيام خلت، كانت السماء لا تزال داكنة بلون الغبار الأسود كأن زرقة السماء قد تبدلت إلى حلة رمادية بعض الشيء، وكان لوقا يسير وهو ينظر إلى السماء، واتجه إلى الحديقة القريبة من منزلهم.. إنه كان يعلم أن الحديقة في ذلك الوقت خالية من الناس، وبعد أن اجتاز البوابة إلى الداخل كان يعرف أين سيذهب.. إلى مكان يرتبط في ذهنه من أيام طفولته؛ كان المكان المقصود شبه دائرة تحيط بأطرافه الثلاثة أشجار كبيرة متشابكة، ويقوم في الطرف الرابع منه حائط كانت تمتد وراءه حديقة حيوان. وغالبًا ما كانت مربيات لوقا يحضرنه عندما كان صغيرًا للنزهة في هذا المكان.. وكان لوقا يتذكر أنه كثيرًا ما تسلق أحد النوافذ المطلة على تلك الحديقة محاولاً النظر إلى فنائها ومحاولاً أن يكتشف معالم تلك الغابة التي تختفي وراءها.

وسمع في يوم من الأيام حديثًا يدور في البيت بين الخادم والمربية عن جريمة قتل فيها شاب دون أن يتمكن من معرفة مكان دفنه، ودون أن يُعثر على جثته، ولكن ثيابه

الملطخة بالدماء والمكان الذي وجدت فيه هذه الثياب كانت قد خلقت افتراضًا بأن الجثة قد دفنت في أحد حدائق المدينة.. فأنصت لوقا إلى الحديث بين امرأتين من المربيات، وأخيرًا سأل:

- لماذا قتلوه؟
- لأنه كان جميلاً ولطيفًا.

والآن وهو يتجه نحو هذه الدائرة عادت إليه هذه الذكرى الغابرة، ولكن بهيئة جديدة... كان يعرف الآن بأن أحدًا لم يدفن في ذلك المكان. ولكن هذا المكان طبع في مخيلته ظل المكان الملائم لدفن ميت جديد.

وكان يسير وحيدًا وقد عصفت في ذهنه خواطر القبور والأموات، ودفن دراهمه التي أثقلت جيبه، وخلال صمت مطبق وموحش يوحي بسكينة القبور مزق أذيال السكون زقزقة عصفور أسود كبير كان يقفز هنا وهناك، ولكنه فرد جناحيه للريح عندما شعر باقتراب تلك الخطوات منه، ثم غاب متواريًا خلف حجاب من الأغصان والأوراق الكثيفة، وهو يحس بشعور الحرية يفعم قلبه، ويفكر بأنه من المستحسن أن يتوغل في الغابة ويعمل وإن كان هدم حياته بالذات والعمل هو حقيقةً إجراء أفعال وفق الأفكار لا بموجب الضرورة.

الفصل الخامس

ابتداء من ذلك اليوم ظهر للوقا أنه وقع في بحر من الخمول المميت.. كان جسده قد اضمحل وضعف من الأعمال الإرادية وغير الإرادية التي كان يقدم عليها، كان يستجمع قواه لكي يأتي بمجهود نهائي قاطع، وكان ينام أغلب الأحيان مهملاً وظائفه المدرسية ويزيد مدة النوم هذا يومًا بعد يوم، ثم يذهب إلى المدرسة فيجلس في الفصل مشتت الأفكار يستمع إلى شرح أساتذته فيرى أن ذلك الكلام إنما يدور في حلقة مفرغة من الهواء، ويتردد إلى ما لا نهاية.

وأحيانًا فيما هو يدرس كان يجول بنظره عبر النافذة، فيلاحظ الغيوم وهي تتجمع استعدادًا لهطول المطر، ثم إنه كان يلاحظ بعد ذلك تلك الغيوم وهي تتقشع، ثم ما ينفك بعد قليل من الزمن أن يشاهد لوقا هطول المطر الشديد على زجاج النافذة بصمت وهدوء.

كانت السماء بحركاتها تلك إنما تشبه الثكالى الذين يندبون ويبكون بعبرات ممزوجة من الألم الصامت الحزين أحيانًا، والألم الغاضب المعبر عن غضبه بالدموع الغزيرة أحيانًا أخرى؛ لذلك فقد أحب لوقا هذا المنظر الحزين، وأخذ يترقبه بين الحين والحين، وكان يحب أن يتأخر فوق مكتبه أمام منظر الزجاج المخطط بقطرات المطر، ولم يكن يقرأ ولا يكتب؛ إنما يظل هكذا ينظر إلى أن يحل الظلام حتى يشمل المرئيات، وعند ذلك الحد يقوم لوقا من مكتبه ويذهب إلى سريره، وما يلبث أن يغط في النوم بدون أن يكمل كتابه الذي كان في يده ويبقى هكذا ناقصًا.

إنه الآن يسعى إلى تحقيق مخططه الذي يسعى إليه.. الموت.. ولكن ليس أي نوع من الموت.. إنه يريد الموت الطبيعي بصورة غير مباشرة، إنه يمكنه أن يقلل من الطعام والقضاء على شدة نهمه وشراهته التي اشتهر بها، وسعى إلى لتخلص من ذلك كما تخلص من أشياء كثيرة قبلها وكان يتعلق بها.

وبدأ لوقا في تنفيذ فكرته بحركة عادية، حتى إنه لم يكن يلمس الأطباق العادية، ولم يكن يتذوق الأطباق التي أحبها. ابتدأ أولاً في تخفيض الأطباق العادية إلى نصفها، ثم إلى ربعها، وكان يترك المائدة قبل أن يشبع مع إحساسه بالجوع، ولكن هذا الإحساس كان مؤقتًا ويختفي بسرعة، ويتلاشى إلى أن يحين المساء؛ حيث يعاوده الألم من جديد فيحاول التغلب عليه بالنوم، فيبدأ بمحاولة النوم ليتمكن من تهدئة معدته.

كان يشعر أنه كلما قلل من الأكل فإنه يخطو إلى لفظ النفس الأخير بسهولة، ولكي يموت عليه أن يتبع قواعد الموت التي تشبه قواعد الحياة أحيانًا.. أما إذا رغب الحياة فعليه أن يعترف بمحبة الدروس والمطالعة ومحبة الأهل وجمع المال والتعلق بالأشياء وتناول الطعام، أما إذا جنح للموت فعليه أن لا يأكل وأن يتخلى عن الأشياء والناس ويلوذ بالنوم الطويل.

ولاحظ لوقا أن أهله لم يلاحظوا ذلك الانقلاب الذي أحدثه وتوقعه على شهيته، أو أنهم لاحظوا قلة شهيته ولم يعلقوا عليها كبير الأثر، ولم يهتموا لذلك أي اهتمام لأنهم كانوا يعرفون أنه كثير النزوات ومنها أنه قليل الطعام.

امرأة واحدة فقط أحست ذلك وهي والدته فقالت له:

- لماذا لا تأكل؟ إن جسمك في مثل هذه المرحلة يتطلب كثيرًا من الطعام، وإن لم تكن جائعًا فأجبر نفسك على الأكل وإلا فكيف سوف تقبل على المذاكرة.

وفهم لوقا أن عدم الأكل هو نوع من العصيان وعدم الطاعة؛ عصيان شديد الخطر، له صيغة جوهرية في قطع السلطة العائلية؛ إذ إن والده ووالدته وجدا حوله بصورة خاصة ليطعماه ويجعلاه يأكل.. إن الطبيعة هكذا...

وأحس لوقا أنه قد وصل إلى آخر حد من حدود العصيان، في جو ضعفت فيه كمية الأكسجين، فأصبحت فكرته صعبة وخطيرة، وكان والداه يريدانه أن يأكل ليعيش ويقوى، أما هو فقد كان ثائرًا بعقليته، لم يكن يريد أن يصوم ويموت. وبهذه الفكرة التي استحوذت عليه لم يكن ليكتب له النجاح ليعرف مدى القوة التي تدفعه، وإلى أين يمكنها أن توصله؛ لأن الموت لم يظهر له كهدف يرمي إلى تحقيقه أو كفالة ينشدها، رغم أن كل فعل من أفعاله كان يهدف إلى إثارته، وسعيه وراء الموت سعيًا حثيثًا.

وأوقعه والده في يوم من الأيام في مأزق حرج؛ لم يكن إثارة نقطة الضعف في أكله غير الاعتيادي، أو تحريض شهيته المكتومة؛ بل إثارة إحساس كان يجهل أنه يكتمه، فلقد مضت مدة وهو يقلل الطعام الذي يتناوله من ناحية الكمية، غير أنه لم يكن يبدو على أهله أي اهتمام بشأن فقدان شهيته؛ ففي صباح أحد الأيام رأى لوقا لفافة بيضاء بجانب والده على مائدة الطعام، وعند انتهاء الطعام رأى والده يأخذ اللفة ثم يحل رباطها، وظهر نوع من الحلوى كان لوقا يفضله في الأيام السابقة على عصيانه وقال الوالد:

- كنت مارًّا أمام بائع الحلوى فاشتريت هذه.... يبدو أنها لذيذة.

فقالت الوالدة:

- هل اشتريتها لأجلي.. أنا لا أحب الحلوى.

أجاب:

- لقد اشتريتها في الحقيقة لأجل لوقا الذي كان يحب هذه الحلوى.

ثم دفع اللفة إلى لوقا بعد أن انتهى من كلامه.

وأجاب لوقا بعد أن أخفض عينيه:

- أنا لم أعد جائعًا يا أبي.

فدهش والده وقال:

- يا لله.. أنت لم تشبع يا ولدي بعد فكل قليلاً من الحلوى.

كانت كلماته ممزوجة بنوع من الألم الحقيقي، وهو يقول ذلك، غير أن لوقا فسره على أنه مكر مقنع بنوع من الذكاء، وقال لوالده:

- لقد قلت لكم الحقيقة إنني لم أعد جائعًا.

- هيا.. هيا.. كل..

وقالت والدته:

- دعه وشأنه، إذا لم يكن جائعًا الآن فسوف يأكلها في المساء.

وشعر لوقا أن والده عندما كان يرجوه أن يأكل على تلك الصورة كان يقول له يجب أن تأكل لتعيش، ثم خامره شعور غريب مليء بالمحبة لوالده وجياش بالشفقة على نفسه، فكر بسره ترى هل أمكن لوالده أن يكتشف أنه يتكلف ذلك العصيان.

وهاجمت لوقا غواية عنيفة تغريه على قبول الحلوى وتناول الطعام وبالتالي قبول الحياة والعيش.. ولكنه شعر بنفس الوقت أن هذا القبول سيكون سببًا تافهًا لاستعادة الحياة من أكلة تافهة لقطعة صغيرة من الحلوى سوغها له حنان أبوه وجاءت متأخرة؛ حيث لن يمكنه القبول بها لأنها كانت تعز عليه بعد أن هدم دروسه وتخلص من الأشياء التي كان يحبها؛ ولذلك أشاح بوجهه عن الطبق المملوء بالحلوى وهو يصر على أسنانه.

- أنت إذن تصر على رفضك أليس كذلك؟

- لست جائعًا.. لست جائعًا..

وأطرق برأسه لا يبدي حراكًا ولا ينبس ببنت شفة.

وساد عليهم صمت مطبق وسكينة عمياء بكماء.

- ليكن ما تريد..

قالها والده دون أن يظهر على وجهه أي أثر من آثار الرفض الذي أمضه.. ثم قال:

- لقد اشتريتها لك وسوف أضعها على الرف، فكل منها متى شئت الأكل.

وداعب خده بيده بلطف وهو يبتسم في وجهه.

شعر لوقا عندها بقشعريرة تسري في أوصاله وتهز بدنه من ذلك الحنان الأبوي.. لقد ترك هذا الموقف شعورًا مملوءًا بأحاسيس السعادة العميقة، التي أدخلت في روعه أنه لم يكن

مرتبطًا بالأشياء التي لم يتخلص منها فقط؛ بل إنه مرتبط بمحبة البنوة التي اعتقد أنه قد قـــام بتحطيمها إلى الأبد.

ومنذ ذلك اليوم ازدادت رغبته بفقدان الحياة وعدم العيش، وتأججت هذه الرغبة فـــي كيانه فألهبت إرادته وأذكت عزيمته.

الفصل السادس

حملت الأنباء القادمة من منزل أقارب لوقا نبأ مرض إحدى شقيقات والدته، وإبعادًا للضجيج من حول المريضة، تم الاتفاق بين العائلتين على أن يقضي أولاد المريضة (وهم بنتان وطفل في الثالثة من عمره) نهارهم عند أسرة لوقا تصحبهم مربيتهم. وتم الاتفاق على ذلك ونفذ هذا القرار فعلاً.

كانت المربية في الخامسة والثلاثين من عمرها، ولم تكن ذات إغراء وفتنة، ولكنها كانت ذات نشاط وحيوية دائمين رغم صحتها الضعيفة. لم تكن راضية بمهنتها كمربية أطفال، ورغم ذلك كانت تقوم بمهمتها بحماسة منقطعة النظير، فتلعب مع تلاميذها الثلاث كأنها طفلة صغيرة، وكانت تلهو مع هذا الولد وتختلق اللعب مع البنتين. هذه التافهة مع نوع من الشهوانية الظاهرة في التعب المسيطر على عينيها وفي جمال يديها؛ كانت دائمة الضحك.

وأفردت أسرة لوقا لتلك المربية غرفة هي والأولاد الصغار، وهي الغرفة الملاصقة لغرفة لوقا.. وهكذا منعت الضجة الصادرة من تلك الغرفة لوقا من الخمول والمطالعة نهائيًّا.. كانت المربية تأخذ الأولاد إلى الحديقة العامة للتنزه وتعود في الساعات الأولى بعد الظهر، لتغلق حجرة الاستقبال عليها وعلى الشياطين الصغار، وتبدأ الضجة والصخب بدون انقطاع حتى المساء.

كان لوقا يسمع من مكتبه وقد أثقل الخمول رأسه وهيمن على أعصابه الصراخ والجلبة وركض الأطفال من الغرفة المجاورة طيلة نهارهم، كما يسمع صراخ المربية وراءهم وتلك الحيوية التي لا تنضب في صوتها؛ مما يجعله يعتقد أن أوان الراحة قد حان، ومن حين إلى آخر كانت الضجة تبلغ أوجها فتصم الآذان، أو عندما يسمع صوت المربية تأمر أحد الأطفال بالكف عن إحداث الضوضاء.

كان الأولاد من خلال طيشهم وعربدتهم يحبون بالطبع ذلك الضجيج المنبعث من لعبهم، وكانت المربية بدورها تقابل هذه العربدة بقابلية مخيلتها وبحيوية طبعها، وفي بعض الأحيان يصل الضجيج إلى ذروته عندما تفتح المربية الباب الخاص بغرفة لوقا قليلاً، وتطل برأسها وهي تسأل بخبث ودهاء فيما إذا كان الأولاد يزعجونه ويقلقون راحته، وبطبيعة الحال كان لوقا يدرك أن سؤالها ليس في محله الصحيح؛ فيجيب دون أن يستدير إليها:

- لا بأس إذا كان ذلك يرضي الصغار.

وفي حقيقة الأمر أنه كان راضيًا بتلك الضوضاء التي تشغله عن مطالعة دروسه؛ لكي يتخذ من تلك الضوضاء ذريعة له لعدم القيام بدروسه واستذكارها، وفي بعض الأحيان كانت تدعوه رغبة ملحة لمشاركة الأولاد لعبهم المتخلف عن لهوه المفجع المضر، فيترك مكتبه وحجرته ويخرج إلى الخارج ليرى أن المقاعد قد قلبت رأسًا على عقب والمربية تدب

على الأرض بيديها ورجليها وقد امتطى ظهرها طفل فكأنها فرسة هوجاء يعتلي صهوتها فارس صنديد، ويقف لوقا وهو يتطلع إلى ذلك المشهد ولكنهم يتجاهلون وجوده، إلا أنه أحيانًا تسأله المربية كما هي العادة عما إذا كان هناك شيئ..

فيجيب لوقا كما هي العادة أيضًا:

- لا.. أكملوا لعبكم.. لقد جئت إلى هنا لكي أرتاح قليلاً من المذاكرة.

ولكن المربية تكون في شغل عن إجابته؛ إذ تكون منهمكة على أشدها مع الأطفال.

كان لوقا في شغفه بمراقبة الأطفال يشعر بالعطف نحو تلك المرأة المغفلة؛ إذ بدت له طيبة بسيطة تختلف عن والدته المعتدة بنظرياتها التربوية الصلبة، والتي لم تكن لتنزل إلى هذا المستوى فتلعب مع الأطفال.

وفي أحد الأيام -وكان مساء- داخله شعور غريب من نوعه، مختلف عن شعور الميل لتلك المربية الساذجة؛ إذ بينما هو ينظر إليها ذات يوم وهي تنتقل من غرفة إلى أخرى كالدابة والطفل راكب على ظهرها؛ حانت منه التفاتة إليها فرآها تنظر إليه بتلك النظرات البوهيمية الشهوانية التي تحمل في طياتها المعاني الجنسية الصارخة العنيفة. كانت عيناها تجتاحانه من أسفل قدميه إلى رأسه، ومئات من المعاني تطلقها تلك النظرات.. كانت تهتز وكان سائر جسدها يهتز هو الآخر معها.. وتطلع لوقا هو الآخر إليها بغير تحفظ ولا أدب، والتقت العيون في غير موعد، وبحركة غريزية رفعت المربية يديها إلى صدرها وكأنها تخفيه من تلك العيون النهمة التي اجتاحتها على غير سابق إنذار، ولكنها فجأة استوحت فكرة أوقعت الاندفاع الحيائي الأول.

ولذلك اكتفت بأن سوت شعرها ثم استأنفت موكب الفروسية في أرجاء غرفة الاستقبال وهي تصهل وتحمحم وتضحك.

أما لوقا فقد لاحظ هذه الحركة؛ فقد أصبح متأكدًا أنها أوقفته وبدلت فيه نزوته، وعلى أثر ذلك شعر بغتة بارتباك وامتعاض.

ولكن المربية اتجهت في ذلك الوقت وهي تدب على قوائمها الأربع يعلو ظهرها الفارس الصغير نحو ركن منزو من الغرفة، وتطلع إليها لأول مرة وخيل إليه أنها تشبه إنسانًا بائسًا؛ إذ إن الفارس الصغير الذي يمتطيها قد سقط من على ظهرها فانقلبت من فرس إلى امرأة في منتهى الحنان حملته وهي تربط بيديها عليه لتطمئنه وتخفف من حدة بكائه، وفي تلك الأثناء عاد لوقا إلى حجرته.

وفي الأيام التالية ألفى لوقا نفسه يترك غرفته ويعرج على غرفة الاستقبال كثيرًا ليلقي نظرة على ما يجول فيها، متذرعًا بحجة أنه نسي أحد كتبه، وتارة أخرى أنه إنما جاء لكي يرتاح قليلاً من عناء المذاكرة، وآونة أخرى بدون حجة على الإطلاق وبصراحة متناهية لكي يلقي نظرة على تلك السيدة التي علم أنها كانت تسر من الفضولية التي يظهرها نحوها، وأراد أن يخدع نفسه بحيلة ما لكي يخفي طبيعة الانجذاب نحوها، ولكنه لم يكن معتادًا على الكذب والخداع ولم يرد أن يسلك سبيل المراوغة ليتمكن من الوصول إلى هدفه.

لقد تبين له بوضوح تام أنه كان يأتي إلى غرفة الاستقبال، وهو يأمل أن يشاهد المربية بتلك الأوضاع الشاذة تحبو على الأرض بيديها ورجليها وتدب كأنها فرس غراء مرفوعة الرأس، مكشوفة الصدر؛ ذلك المشهد الذي كان يشعر معه بلذة فائقة لم يكن راضيًا عنها؛ بل كرس كل قوته وإرادته لكي يسعى إلى فصم عرى تلك الرابطة الجديدة بينه وبينها.. حاول في البداية أن يتحكم بنفسه وأن يطرد تلك الرغبة عنه، ولكنه لاحظ بسرعة أنه بعد أن قاوم تسعة أو عشر مرات لم يحصل على النتيجة التي كان يتمناها؛ إنه كان دائمًا ما يقف أمام الحجرة بطريقة بلهاء ومريبة أكثر مما سبق.

إنه حاول غريزيًّا أن يجرب طريقة مختلفة ليحضر ويلقي نظرة على غرفة الاستقبال كلما شعر بالرغبة لذلك، ولكن حاول تعبير طبيعة لذته وهو يراقب المربية بانتباه. في البداية كان الأمر يتعلق برغبة ساذجة ومسرة خافية كان غير مكترث لها، فحاول الإدخال على رغبته هذه لذة جديدة، وبانتفاضة نفسية وبصورة لا شعورية عاد إلى نفس الحيلة التي تبناها عندما تخلص من كتبه في الماضي.

لقد لاحظ بدون أن يجهد نفسه في تلك الملاحظة أن تلك السيدة لم تكن جميلة، ونقص الجمال والجاذبية لديها كان يرجح كفة رغبته المبهمة والمحتشمة بصفاء وإعجاب لا مصلحة فيه، ولا سبيل إلى التخلص منه وتحرير عواطفه المكبوتة من هذا الرباط الذي أوثقه وكبّل إحساساته.

لقد ألهمته هذه التفكيرات نوعًا من المواساة؛ فهذه المرأة كانت في الحقيقة خالية من الجمال والظرف؛ إنها لم تعد فتية فليس لها أي مسحة من الصبا والجمال.

ولكن المؤاساة عاشت مدة قصيرة فقط، وفيما هو يدقق مرة أخرى في لحظة اعتقد فيها أنه يمكنه أن يدقق النظر خلسة دون أن تشعر به المربية؛ لاحظ أنها تعجبه لكونها مختمرة وناضجة وخالية من الظرف، ولكنه بالحقيقة ظل يشعر في لذته طعم الاشمئزاز؛ ليس كعنصر من عناصر القرف؛ بل كنوع من الإغراء الأكثر شهية.. حدث كل هذا دون أن

يتمكن من الامتناع عن التفكير به، ودون أن يدرك كيفية حدوثه في أعماق غريزته، وفهم أن بإمكانه أن يعيد هذه المرأة فتية وجميلة لما تتمتع به من القوة والحيوية.

وهكذا فإن رغبات حواسه كانت أقوى من رغبته للموت؛ وهذا ما جعل البشاعة محببة إليه رغمًا عنه؛ فإنه يسعى للعودة إلى هذه الحياة التي أراد الخروج منها مهما كلف الثمن.

هذا الاكتشاف قاده إلى اليأس؛ لأنه فهم أنه لو كان بإمكان نظرياته ونظراته النهمة التي يلقيها على صدر أو أي جزء آخر من تلك المرأة أن تكون كافية لهدم البناء الشاق الذي بناه من العصيان؛ فإن هذه النظرات لم تكن كافية لتجعله يحيا بشكل إيجابي.

في هذه اللحظة أخذت المربية جانب المبادرة، كأنها اكتشفت أفكاره، فحينًا كانت تتوجه إلى غرفة لوقا؛ لتجعل أحد الأولاد يلحق بها، ثم ترمي بنفسها على سريره مقلوبة على ظهرها تتأرجح قدماها في الهواء، وهي تلعب إحدى لعبها العادية في العراك الصاخب، وأحيانًا أخرى كانت تأتي إليه عندما تصل الضجة إلى قمتها، فتعتذر له عنها. كانت تقوم بها وتحاول ألا تجعلها غير مقصودة وهي تضحك وتمزح، ولكن بدا للوقا بأنها لم تعد تقوم بها تلقائيًّا كالسابق.

ثم اختلقت لعبة جديدة فرضت فيها على اللاعبين مغادرة المكان لحظة، ولما جاء دورها عوضًا عن التوجه إلى الممشى دخلت غرفة لوقا بحجة أنها تشعر بالبرد في الممشى، وبعد أن دفعت الباب اقتربت من لوقا بدون أن تحدث صوتًا، وانحنت على كتفه تلصق خدها بخده وقالت:

- ماذا تذاكر؟ لاتيني؟
- لا.. فرنسي.
- ولكنني قمت بتعليم الفرنسية.. دعني أرى ما تقرأه.. لكورني!.

بدا صوت المربية لغويًّا جدًّا، ولكنه وجد صعوبة في الالتفات نحوها.. ووجد وجهه يكاد ينطبق على وجهها، وجهها كان ينظر إليه بسعادة ويبتسم له بعينين حمراوين، لاحظ لوقا بأن عينيها كانتا متهدلتين قليلاً تلمعان تحت البودرة الزهرية اللون التي غطت بها عينيها. ولاحظ فعلاً بأن هذه التقاطيع قد سرته كعادته لأنها كانت مقرفة، وما إن رأته ينظر إليها بقساوة حتى قالت له وهي تضحك:

- هيا إلى المذاكرة..

ثم ابتعدت عنه تمشي مشي القطى نحو الباب وهي تصرخ:

- والآن هل يمكنني الدخول؟

وما إن وافق الأولاد على ذلك حتى غادرت الغرفة.

وفي اليوم التالي وبالكاد كان لوقا قد ارتمى فوق سريره، وأغمض عينيه، حتى شعر وهو غارق في نومه بثلاثة أو أربعة أجساد متحركة تسقط فوقه.. لقد كانت المربية يلحق بها تلاميذها الصغار الذين ارتموا فوقه بشيء من الخبث أثناء ملاحقتهم لها.

كانت المرأة والأولاد الثلاثة يتصارعون ضاحكين، وصراعهم يعلو.. ولكي يتمكن من تحرير نفسه بدأ يصارعهم ويبعدهم عنه. ولاحظ شيئًا داخليًّا يدفعه في وسط هذا العراك ليفتش بيديه عن جسد المرأة غريزيًّا، كما كان يبدو عليها أنها تفتش عنه هي الأخرى، رغم ما كان يبدو منها من التلقائية والعنف.. وعوضًا عن المحاولة للتخلص كانا بشكل غريزي يريدان إطالة أمد هذه المصارعة لإشباع حاسة اللمس.

ثم على أثر حركة أتت بها لتتخلص من الأولاد وجد لوقا ساقيها يضغطان على وجهه وفي هذه المرة تأكد له بأن عملها هذا كان مقصودًا؛ فلقد كانت أفخاذها تقع فوق فمه وترتج فوق هذا الفم كأنها كتلة من لحم خفيف ولذيذ، تشعر معه شفتاه بارتجاف عضلاتها لدى كل اهتزاز مقصود، وهي تمتد لكي لا توجعه، وأخيرًا قامت عن السرير وصرخت:

- اكتفينا من هذه اللعبة.. والآن سأعرض عليكم غيرها.

وفي الحال هدأ الأولاد فأكملت:

- اللعبة الجديدة تنحصر فيما يلي: سنطفئ النور في البيت كله ثم نقترع على اسم أحدنا ليمثل اللعبة بينما يذهب الآخرون للاختباء في الغرف الأخرى، وعلى الشخص الذي تصيبه القرعة أن يفتش في الظلمة عن الباقين، ويسمي كل واحد عندما يقبض عليه ويعرفه، ثم يجب الانتباه بلزوم بقاء البيت مظلمًا، بدون أن يتكلم الشخص الذي يفتش عن الآخرين؛ بل يستعمل يديه فقط، ثم أضافت وهي توجه حديثها إلى لوقا: بالطبع من الواجب إطفاء النور في غرفتك إذا كان هذا لا يزعجك.. وفي هذه المرة إذا شئت يمكنك أن تشاركنا اللعب.

قال لوقا:

- فليكن.

وأضافت المربية:

- ممنوع الاختباء وقفل الغرفة بالمفتاح.. كما أنه ممنوع الاختباء في داخل الخزانات.

فسألها الولد الصغير:

- هل يمكننا الاختباء تحت الأسرة؟

- نعم الاختباء تحت الأسرة مسموح.

غادر الجميع غرفة لوقا واتجهوا نحو غرفة الاستقبال، ثم كتبت المربية أسماء اللاعبين على قطع صغيرة من الورق، وبعد أن جرى خلطها سحبت إحدى التوأمتين ورقة القرعة، وصاحت البنت وهي تفتح الورقة المختارة:

- لوقا..

فرأى لوقا نظرات الحسد تنهال عليه من أولاد خالته.

قالت المربية للوقا:

- يجب أن تظل هنا بالصالون بينما نذهب لنختبئ.

ووافق لوقا على ذلك بإشارة من رأسه، واتجه نحو مقعد قرب المدفأة وجلس عليه.

غادر الجميع بما فيهم المربية غرفة الاستقبال، وأُطفئت الأنوار في جميع الغرف، وبدأ لوقا بالإنصات والظلمة مسيطرة على المكان وسمع وسط هذه الظلمة وقع خطوات تغدو وتروح وأبواب تفتح وتغلق وقرقعات واصطدامات، وشعر في هذه اللحظة أنه قد انغمس كليًّا في هذه اللعبة محاولاً معرفة مكان المختبئين.

وفي بعض الأوقات كانت تمر بعض السيارات في الشارع فتسقط شعاعًا مضيئًا يدور نحو السقف، ثم يختفي وخلال لحظة وفي وسط الظل المخطط لضوء قوي كان يرى حجرة الاستقبال بكاملها. وخلال هذه الإضاءات شاهد خيالاً أسود واقفًا باستقامة في زاوية الغرفة في الفراغ الكائن بين المكتبة وواجهة الأواني الخزفية.

لقد كانت المربية واقفة، فقال لوقا لنفسه إنها كثيرة الحيلة، في غرفة الاستقبال لم تكن مختفية تمامًا كأنها عمدت إلى أن تظهر نفسها في هذا المكان المطروق، وكأنها قدرت أن يهتدي إلى مكانها فقصدت الاختباء فيه.

وبعد لحظة من التفكير قرر لوقا أن يتظاهر بالتفتيش في الممشى، مع أنه بالحقيقة لن يفتش عن شيء وسيذهب رأسًا إلى المكان الذي اختبأت فيه ويصرخ باسمها في صوت مرتفع، وراقت له هذه الفكرة المقررة، فسيظهر لهذه المرأة بأنه أكثر حيلة منها.. وخلال هذا التفكير سمع صوت إحدى التوأمتين يقول:

- إننا جاهزون للتفتيش..

واجتاز بسرعة وهو يتحسس حجرة الاستقبال فوصل إلى الردهة حيث وقف لينصت، لم يكن يريد الالتقاء بأحد أولاد خالته، كان يفضل أن يلتقي بتلك المرأة، شعر لأول مرة بنية

لم يكن لها علاقة باللعبة، فتقدم نحو مشجب المظلات وتظاهر بالتفتيش بين العصي والمظلات فسمع صوتًا ضعيفًا يناديه من بعيد وهو يكرر:

- إنك ستتجمد من البرد..

قام لوقا ببعض الخطوات واصطدم قصدًا بكرسي ثم عاد إلى حجرة الاستقبال وتوجه ويديه ممدوتين إلى حيث كانت تختبئ المربية.

فكر أن يقوم بقفزة ويمسك بها ويصرخ على الفور هذه هي المربية.. ولكنه تخلى عن تلك الفكرة في اللحظة الأخيرة واستوحى فكرة مشوبة بالخبث.

وصل إلى المكان المعين فمد يديه إلى الفراغ فاصطدمت أصابعه بجسم لدن، ثم لمست محيط خد، لم تحرك المربية ساكنًا ولم تنبس ببنت شفة، علامة على أنها كانت متقيدة بتعاليم اللعبة، وجالت أصابع لوقا على خدها ثم نزلت إلى ذقنها وأخيرًا استقرت على رقبتها.

وبينما كان يدير أصابعه على ذقنها؛ علم بأن هناك لعبة أخرى قد حلت محل اللعبة الأولى، هذه اللعبة الجديدة لم تكن مجرد لعبة، ولكنها الرغبة التي كانت تدفعه يوميًّا إلى أن يتلصص على المربية أثناء لعبها مع الأولاد، وعلى أثر هذه الفكرة انتابه اضطراب شديد قطع عليه أنفاسه وأذكى النار في وجهه، فأخر إعلان اسمها بخبث، وجعل أصابعه تلعب على وجه المرأة كما لو كان قد صعب عليه معرفة صاحبته.

كان يسره بلا شك أن يدغدغ تلك الخد، وأن يطيل اللعب فيهما؛ ولهذا السبب طالت مدة اللعب بوجهها؛ لأنه شعر بلذة وهو يقوم بذلك، وبالتالي كان يسر بالمشاركة التي كانت تجمعهما رغم أنه شعر بشيء من الخسة لا يعرف كنهه.

وبعد تلك المداعبات وبعد أن طال الزمن خشي لوقا أن ينكشف أمرهما فصرخ:

- إنها الآنسة..

وفي الحال ابتعدت الآنسة التي كانت في غير وعيها نتيجة لتلك المداعبات، وارتفع الصراخ والضجيج من الأطفال، وأضيئت الأنوار ودخل الأولاد يجرون وهم يغالون في التبجح بالمكان الذي اختبأ فيه كل منهم. فقال أصغرهم:

- لقد اختبأت في غرفة المكانس.

فقاطعته المربية بقساوة:

- لا تتحدثوا عن المخابئ.. وإلا سينتهي اللعب بسرعة.

وخلال بعض الوقت بدأوا بمفاجئات هذه اللعبة ثم أعلنت المربية:

- الآن جاء دوري.. ولكن انتبهوا.. يجب الاختباء جيدًا لأنني أعرفكم فلي القدرة على معرفتكم بسرعة.

كانت هيئتها تدل على أنها مسرورة، منشرحة الخاطر، لا هم لديها وقد منحت نفسها كليًّا للعب، أما لوقا فقد أعجب بها لما رآها على هذه الحالة، ولم يتمكن من الإعجاب إلا بسرعة بديهيتها.

وأضافت وهي تتجه إلى مفتاح النور:

- سأقطع النور.. اركضوا جميعًا.. اختبئوا..

وخيم الظلام الدامس كأنه مغارة في جوف جبل.. وخلال لحظة تردد لوقا بين فكرتين.. كان بإمكانه أن يختبئ دون أن تعثر المربية عليه، والفكرة الثانية هي أنه يختبئ في نفس المكان الذي اختبأت فيه المربية وفي هذه الحالة سيكون من السهل عليها أن تكتشف مكانه، وهذه الفكرة أكثر انجذابًا رغم كونها مكونة من أشياء غير مرغوب فيها..

كانت الفكرة الأولى توحي بلعب مستمر، يضاف إليه رفض هذه الرابطة الأخيرة من اللحم والقرف الذي يربطه بالحياة.

أما الفكرة الثانية فهي قبول هذه الرابطة، مع ضمان اللقاء الحتمي في ذلك المخبأ، وبالصدفة مرت سيارة عكست أضواءها على السقف والجدران فأضاءت المكتبة حيث يختبئ وتأكد له أن المرأة لم تكن قد غادرت الغرفة وأنها قد لمحته.

اتخذت المربية نفس الوضع الذي كان لوقا قد اتخذه سابقًا، وكررت حركاته بعينها؛ إذ إنها توجهت إلى الممشى وتظاهرت بالتفتيش والمسير فيه، ثم كرت عائدة إلى غرفة الاستقبال.

فهم لوقا من تحركاتها أنها قادمة نحوه، وقد لاحظ ذلك من ضوء سيجارتها المشتعلة بين شفتيها.. كانت النقطة الحمراء المضيئة التي ترسمها سيجارتها تشبه كوكبًا في السماء الداكنة.

ولما اقتربت أصبح اللهب المنبعث من تلك النقطة الحمراء قريبًا للغاية من وجه لوقا.. شاهدها لوقا تقذف بتلك السيجارة تحت قدميها، وتقوم بسحقها ثم شعر في نفس الوقت أنها قامت بتطويقه من عنقه كأنها حية رقطاء تلتف حول رقبته بحركة قوية، ثم شعر بأنفاس ممزوجة برائحة التبغ والشحم تلفح وجهه، وتبعها بالحال الشعور بشفتين تطبقان على شفتيه.

وفي هذه القبلة الأولى في حياته تبين له معرفة إحساس مضطرب، وفي نفس الوقت لذيذ وكريه، شفتا المرأة المنفرجتين غطتا شفتيه واحتوتهما كما لو كانت تريد حبسهما في حركة مص دائرية لا تبتلع فمه فقط، بل حنكه وقاعدة منخاريه.

كانت شفتاها تشبهان جرحًا عميقًا، وتبدوان جامدتين بدون حياة، تتلاحمان بوجهه بأكثر من حركة إرادية، منفرجتان فوق شفتيه، وكان وجهها ملتصق بوجهه بحركة إرادية كان لسانها يتسلل بين شفتيها ليلج بشدة في فم لوقا، كأنه يعسوب يمتص الرحيق من فمه، راح لسانها يصول ويجول كأنه لا يحاول سبر أعماق فمه فقط؛ بل أعماق جسده بكامله، يمنعها عن ذلك قصر في الوسائل المستعملة.

وبدأ لوقا يفكر في ذلك اللسان الخشن الرطب الذي يشبه حلزونًا خرج من قوقعته، ولكن بعد أن أطلق سراحه لم يشعر بالتعب رغم وجوده فيها، ولكنه حاول أن يعوض ما فاته، أما القبلة فقد بللت فم لوقا بسيل غزير من اللعاب.

وانتظر لوقا طويلاً أن تعلن المربية اسمه ومكان اختبائه ليسدل الستار على هذه المهزلة، وتنتهي القبلة المميتة، ولكن المرأة لم تفعل؛ بل إنها كانت تترنح من فرط النشوة، وكانت تريد المتابعة.. وجاءه الفرج إذ خرج أحد أولاد خالته الصغار وقال لها:

– أنت لا تفتشين.. لقد التفت حول لوقا فقط.. هذا ليس بالحسبان..

بدا لوقا عند سماعه هذا الصوت أنه يسمع صوت براءته في اللحظة التي كانت المربية تتخاذل وقد أحرقتها النشوة، فتركته لدى سماع ذلك الصوت حالاً وابتعدت عنه وهي تصطدم بالأثاث قائلة بصوت متهدج:

– لماذا لا يكون بالحسبان؟ إنني لا أزال أفتش.

وسحب لوقا منديله رغم اللهاث المسيطر عليه وراح يجفف فمه المبلل باللعاب.

وانتهى اللعب بغتة بصورة عادية كما ينتهي لعب الأطفال بعدم اكتراث، وتوجه لوقا إلى حجرته وسط الظلمة الدامسة ثم رمى نفسه فوق السرير، وظل ينصت إلى أصوات الصغار وصوت مربيتهم مدة طويلة، ولم يشعر إلا بالنعاس يداعب أجفانه ويسلمه إلى لذيذ الكرى، ولكنه لم يلبث أن أفاق على هدوء مباغت ورأى الباب يفتح، وخلال خيط واهٍ من النور شاهد المربية تدخل إلى غرفته.. كان الأولاد في حجرة الاستقبال يتسامرون بهدوء، دلالة على أنهم يرتدون ثيابهم استعدادًا للعودة إلى البيت، في حين كانت المربية تقترب من السرير وتنحني هامسة:

– هل كنت نائمًا؟

أجاب لوقا:

- نعم كدت أنام.

فسألته بصوت خفيض:

- لماذا لا تأتي لزيارتي في منزلي يوم الأحد؟

فسألها لوقا:

- أين تقيمين؟

فما كان منها إلا أنها أعطته ورقة بها عنوانها. ولم يبق من سروره المعتاد شيئًا عندما مالت بجسمها عليه، وشعر بلذة مشوبة بإحساسات غامضة كالتي شعر بها في قبلته الأولى عندما تماست شفاههما بحركة عصبية خاطفة، ثم صرخت وهي تندفع نحو الباب:

- قادمة.. قادمة...

الفصل السابع

جاء يوم الأربعاء ولم يبق للموعد سوى ثلاثة أيام، وخلال تلك المدة كان لوقا يقرر أن يذهب إلى الموعد المضروب بينه وبين المربية ثم يعود فيعدل عن ذلك القرار، وينتهي به الأمر إلى اتخاذ قرار عدم الذهاب. لقد قرر أن يمنح نفسه للحب، ورفض الحب، وهكذا ظل في دوامة حائرة لا يقرر شيئاً إلا وينتصب له ما يعاكسه.

جميع الأسباب كانت تهيب به أن يذهب إلى هذا الموعد، ولم يكن ثمة سبب يدافع عن رفضه لزيارتها في بيتها؛ إذ إن رفضه كان منصبًّا على رغبته التي لا أمل منها في هدم الروابط التي تربطه مع الحياة، والرغبة -وهي أكثر من سبب- كانت نوعًا من نقطة الشرف المولودة بالظلام، والتي كبرت في الزاوية الخفية من روحه.

وفهم أن المربية بحبها له كانت تريد منه أن يعيش، ولكن هذا الحب كان يمتلك حواسه، وثمة شيء يزعجه ويغضبه؛ هو أن جوع حواسه قد ربح المعركة بسهولة، وبعد أن حدث ما حدث مع تلك المرأة بدا له أنه عرف نفسه وعرف تصرفه كذكر.

وجاء يوم الأحد وهو لا يزال يتخبط وسط قراراته، وفي الصباح قرر عدم الذهاب إلى بيت المربية، ولكنه ما لبث أن غير رأيه بعد الغداء، فأعلن لأمه بروح مملوءة بتحد غامض بأنه ذاهب إلى السينما، ثم غادر المنزل ولكن بعد بضعة خطوات لاحظ أن قدميه تقودانه إلى اتجاه آخر.. وجد نفسه يتجه إلى الحديقة المجاورة لمنزلهم.

توجه من فوره إلى مقعد حجري وجلس عليه، وراح يتطلع إلى ما حوله، وبدأ يشعر أنه فريسة ضيق يسيطر على جسمه وروحه ويفقده لذة الحيوية وحيوية الجسم، ولكنه مع ذلك لم يمكن مكتئبًا للشعور الذي ينتابه؛ إذ أن عدم الارتياح الذي يسيطر عليه سيطرد ذكرى المربية، والإغراء المسيطر عليه للذهاب لرؤيتها، بالإضافة إلى أن هذا الارتياح كان وهميًّا وغريبًا ومستمدًا من الحيرة، ومن تردده المتزايد زيادة لا يمكن قياسها، ومما لا شك فيه أن هذه الزيادة كانت تدفعه إلى زيارة المربية في بيتها مع الشعور بالقرف والامتعاض، مع علمه بأن ما يعجبه منها ليس له علاقة بهذا الشعور الغامض؛ بل كان يعجبه هذا الثبات وهذا السلم المعكر الأصم.

كان يدرك بأنه إن حاول مواجهة الإغراء بعنف وصراحة لأمكن لهذا الإغراء الاستفادة من قوة الممانعة ليحول هذه الأخيرة إلى مصلحته الخاصة، وهكذا فإن الشيء الوحيد اللازم إجراؤه يكمن في تهدئة كل مناقشة والركون إلى النوم.

ولكنه كان يعلم لماذا عاد إلى هذه الحديقة كأنه ناسك يعود إلى صومعته ليتابع طقوسه الدينية، وهكذا فعل لوقا وهو يتابع قدمه في ركاب الحياة المقدسة ثم يقنع نفسه باستحالة الرجوع عن هذا الرفض.

وهكذا فإن الذهاب إلى تلك المرأة هو نفس الخيانة التي يقدم عليها تجاه نفسه، لقد كانت تنتظره في بيتها كما ينتظره والده على مائدة الطعام، وكما ينتظره أساتذته ومعلموه في المدرسة، كان الجميع يتآمرون عليه لتقوية ضعفه فيترك فكرة الموت التي كرس لها كل شيء ليبعث في داخله حب التمسك بالحياة وملذاتها، وخلال تفكيره وتأملاته كان الوقت يمر سريعًا ولم يلاحظ النور الذي بدأ ينتشر نتيجة لإضافة الأنوار الكهربائية ولم ينتبه من شروده إلا عندما كان الليل يسدل ستاره؛ إذ ذاك شعر بأن جسمه يقشعر من البرد، بل كأنه قد تجمد ثم تذكر فجأة أنه لم يكن بالحقيقة إلا طفلاً صغيرًا تأخر عن العودة إلى البيت إلى ساعة متأخرة.

وبينما هو يسير على طول الطريق الذي أصبح معتمًا في ظلال الشجر سمع صوتًا ينادي: إننا نقفل.. لقد كان الحارس الخاص بالحديقة ينادي أن موعد إغلاق الحديقة قد أزف وأن على الجميع أن يغادروا هذا المكان.

كان صوت الحارس يرن في أذني لوقا بطريقة مزعجة ومفجعة باعتباره نداءً يطالبه بالعودة إلى المنزل، وإلى عالم المدرسة الذي كان يبغضه، وأن يعود إلى هذا المجتمع الذي يكرهه لدرجة لا تقدر، وفكر لحظة بالبقاء داخل الحديقة العامة وقضاء الليل في الساحة المدورة ليحادث نفسه ويحادث الأشجار، ولكن الشجاعة خانته فتوجه من فوره إلى الباب الخارجي وأخذ طريقه إلى منزله.

والآن وقد عاد إلى المنزل تملكه الخوف من لقائه في الغد بالمربية، بل وزاد خوفه بعد أن حطم رغبته الملحة للقيام بزيارتها إلى منزلها، وما سيحصل عليه من لذة اشتهاها ساعة أن قبّلها تلك القبلة الأولى في حياته.

الفصل الثامن

ولكن المربية لم تحضر في اليوم التالي؛ إذ إن والدة لوقا أخبرته بأن خالته قد شفيت من مرضها ولم يبق من ضرورة لوجود المربية وإبعاد الأولاد عن المنزل. فشعر لوقا بخيبة الأمل؛ إذ إنه بالحقيقة شعر أنه كان يريد أن يرى تلك المرأة مرة ثانية.

هذه الرغبة البسيطة والمباشرة المشابهة لشهوة طبيعية جعلته يخاف؛ لأنها كانت تُظهر له بوضوح بأنه لا يزال متمسكًا بالحياة وبمناهجها المبهمة التي اشمأز وقرف منها. مضت خمسة أيام أخرى على اليوم الذي أخبرته والدته بشفاء خالته، وأن المربية لن تحضر، وأصبح للوقا أمل بأن ينسى هذا المرأة، وفي صباح يوم الأحد وفيما هو يمر أمام كشك الهاتف إذا به يقف فجأة وبصورة ملحوظة تكاد تكون آلية ليدير رقم تليفونها، وجاءه الرد على الطرف الآخر من الخط.. وكانت هي المتكلمة وردت عليه بنبرة تحمل في طياتها بأنها انتظرته طيلة المدة السابقة الطويلة، وقالت له معاتبة إياه:

- وأخيرًا.. لماذا لم تأت نهار الأحد الماضي؟
- لم أتمكن من المجيء إليك.. هل كنت تنتظرينني؟
- نعم انتظرتك.. ولكن ليس طويلاً...

وبدا للوقا أن ذلك الصوت الذي يسمعه غريبًا على أذنه.. إنه صوت فقد السرور الذي انبثق منه، ولم يعد الموضوع يتعلق بمقاومة الغواية.

وسألها لوقا بصوت منخفض:

- هل يمكنني المجيء إليك الآن؟

وردت المربية بسرعة:

- لا.. ليس اليوم.. إنني أشعر ببعض التعب.. إن صحتي ليست على ما يرام في هذه الأيام..

وأجابها لوقا بصوت حاول ألا يظهر غضبه الشديد:

- فهمت..
- هذه هي الحقيقة.. أرجو أن تكون قد صدقتني فأنا فعلاً أشعر ببعض التعب هذه الأيام ولكن يمكنك أن تحضر الأحد القادم.. هل يمكنك ذلك؟
- نعم...
- إذًا إلى اللقاء الأحد المقبل.

وخلال الأسبوع التالي لم يشغل لوقا تفكيره بأي شيء سوى الموعد المرتقب مع تلك المرأة، بعد أن ودع كل مقاومة ورفض الرغبة بكل ما يقوي رابطة الحياة لديه، وحصر

اهتمامه وتفكيره بها، وقد تسلط عليه قلق ورعب واضطراب عميق؛ لأنه أصبح نهبًا لرغبة قاسية فرضتها عليه حواسه.

فالموت ورغبته فيه لم يعد لهما حساب لديه، وكذلك بالنسبة لحياته هذه، إلا إذا اعتبرناها حياة القلق وضيق النفس.. وجرف الغرام لوقا وسحبه بعيدًا عن حالته القديمة كالسيول القوية القادمة من قمم الجبال التي تجرف معها الطمي والحجارة، ولا تسمح بأي شيء يقاومها، ولا يوضع الرجل حتى على الأرض الصلبة.

لقد بدا له بأنه فقد كل شيء. شخصيته وقيمته، كل شيء يستثني من ذلك هذه المرأة التي كان خياله يصورها له في شتى الأوضاع بمشاهد محببة ومقلقة في نفس الوقت.. إن ما كان يخشاه قد حصل الآن: لقد عاد ليستأنف تذوقه للحياة بعد أن حطمه.. كانت عودته إلى الحياة تنحصر في حياة مصغرة وضيقة الأفق من الترف بدون أي أمل، ليصل بها إلى شعور أكثر سعة وأكثر إيجابية.

أما وقد شعر بأنه حُمل على رغبته لهذه المرأة بغريزة ضيقة وحيوانية واضحة؛ تبين له بأنه لا يحبها ولن يحبها أبدًا.

لم يعد لوقا يشتغل وقد امتنع عن الأكل والنوم سوى جزء يسير يقيم به أوده، وقد أصبحت إحساساته دائمة الاضطراب بشكل مستمر، وفكره فريسة للتقزز والقرف، وبات ينتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم المنتظر ومرور تلك الأيام الباقية على هذا الميعاد.

وفي يوم الأحد المنتظر غادر منزله في ساعة مبكرة، وكانت المربية تقيم في شارع قديم، وفيما هو يسير في تلك الشوارع شعر أن رجله لا تقويان على الاستمرار في السير على طول هذا الطريق، وأن رأسه المثقل بالهموم والأفكار يترنح، وأن الحقد يعصف بكيانه على أنه وافق بالقيام بتلك الزيارة.

وكان يشعر رغم اضطرابه –وهو يتوجه إلى بيت المربية ليوافيها فيه وينفذ الرغبة التي بدأ ينسج خيوطها عندما كان اللعب يسير سجالاً في منزله– أن ما كان يقوم به من موافاتها في الموعد المضروب هو شيء طبيعي؛ ذلك الشيء الذي يبدو له بصورة دقيقة يوحي إليه بهيئة الاحترام الكاذبة لهذا الإنسان، رغم الهزيمة التي ترتكز في قبوله لهذا الوضع الدنيء الذي يعتقده شيئًا طبيعيًا.

وأخيرًا وصل إلى العنوان، ووجد البيت المنتظر قريبًا من أسوار ثكنة عسكرية، وكانت البوابة الخارجية مفتوحة على مصراعيها، وشاهد في أعماق المدخل لوحًا قديمًا من الزجاج الملون. ارتقى السلم وقدماه ترتجفان، وقد امتلأ قلبه قرفًا واشمئزازًا، وأخيرًا وصل إلى الشقة الخاصة بالمربية وتخيل أشياء كثيرة ساعة أن تقابله، وهيأ له عقله ذلك اللقاء

المحموم العاصف، وتخيل أيضًا حرارة لسانها الملتهب الذي لا يتعب، وتخيل أساليب الغرام التي سوف يحصل عليها من تلك المرأة المجربة المحنكة في هذا المجال، ومدى ما سيحصل عليه من لذة بات يحسب لها الأيام والثواني.

وطرق الباب وانتظر برهة وهو يمني نفسه إلى أن فتحت إحدى السيدات الباب، واستولت عليه الدهشة من تلك الرائحة الكريهة التي تنبعث من الداخل، عكس ما كان يتوقع من رائحة الحب.. وسألته المرأة:

- من أنت؟ وماذا تريد يا سيدي؟

سألته المرأة المسنة التي تلبس الثياب السوداء.

فذكر لها اسمه ثم قال:

- لقد جئت أسأل عن أخبار المربية.

وأجابت المرأة المسنة:

- إنها مريضة.. إن صحتها في تقهقر مستمر.

فخرج لوقا إلى الشارع وعاد إلى منزله، وتوجه إلى غرفته ثم ارتمى فوق سريره وشعر بشيء أقوى وأوسع من الشفقة على هذه المرأة التي لم يكن يحبها، والتي لم تكن رغبته بها إلا فرصة أراد عدم إضاعتها.

شعر بالكراهية وبمقت شديد لنفسه التي سيطرت عليه الآن، وعلى الأقل كان شعوره ضد هذا القسم من جسمه الذي أنزل عليه الذل والإهانة على أثر هذا المسعى المخجل ذو النتيجة المقيتة؛ إنه وجد امرأة محتضرة حيث كان يأمل أن تنتظره امرأة للحب.

وبدا له أن الحوادث جاءت صامتة بدون ضجة تعطيه نوعًا من الدروس، وتدله مجددًا على الطريق الصائب الذي أبعدته عنه رغباته. لقد كان هنالك شيء موسيقي في مشهد الارتباك هذا، وكذلك مشهد الموت في منزل المربية؛ كأنه نغم توقف خلال لحظة قصيرة على أثر تباين نغمات أخرى، ثم عادت النغمة لتستمر بقوة أعظم وفي إيقاع أوضح وأثبت.

هذه النغمة التي كانت ترن في أذنيه منذ مدة طويلة، وقد أخطأ في نسيانها، نغمة عميقة منخفضة؛ نغمة الموت ممزوجة بالكآبة، وبنفس الوقت نغمة ساحرة لأنها تنبعث من ذاته.

- ولنفرض أن المربية لن تموت؟

سأل لوقا نفسه هذا السؤال بفضولية باردة، ولكن تبين له لدى توضيح هذا الأمل بأن حواسه قد استفاقت، وعادت إليه كراهيته لنفسه فورًا وبصورة أقوى وأعنف، فلم يكن راغبًا أن تعيش المربية لأجل نفسها؛ بل كان يرغب أن تحيا وتموت لأجله هو وحده.

- هذا كل ما تعنيه الحياة.

فكر بذلك ليفهم حياة والديه وحياة معلميه والعالم، وبغتة فكر بأنه يتمنى فعلاً أن تموت.. ثم ساقه تفكيره السائر على هذا النمط، بأن يتمنى وبشكل أعنف وأقوى أن ينزل الموت بساحته هو الآخر.

وبدأت سلسلة أخرى من سلاسل العصيان.

الفصل التاسع

بعد يومين من تلك الزيارة علم لوقا أن المربية قد ماتت.. لقد علم بتلك الوفاة من والديه؛ إذ إنهما تكلما عن ذلك الموضوع أثناء تناول الطعام، ولم ينسيا أن يثنيا عليها بعبارات الثناء، كما أنهما لم ينسيا أن يشبعا كلماتهما بعبارات الرثاء والأسى المناسبين لتلك المأساة.

وقالت والدة لوقا:

- لقد كانت فتاة شجاعة كثيرة المرح والبهجة ولم نكن ننتظر رحيلها المفاجئ.

وقال والده:

- إنني لم أكن أتوقع أبدًا أن ترحل حياة تلك الإنسانة، وهي لم تكن تمتعت أبدًا بمباهج الحياة إلا بنذر يسير.

ثم تغير الحديث عن الموت إلى موضوعات أخرى، ولكن لوقا الذي أمل بموت المربية سيلهمه شعور ما؛ إن لم يكن شعور الشفقة، على الأقل فسيكون شعور تحرر، لكنه اكتشف عكس ما كان يرجوه من أنه لا يزال يفكر بها، وبرغبة كأنها لا تزال حية تنبض بالحياة.

وحسب ما كان يعتقد؛ فالإحساسات التي أيقظتها هذه المرأة في كيانه قد نوقشت نقاشًا دقيقًا بواسطة ذكرى حواسه، على أمل أن يطردها يومًا بعد يوم بشكل غذاء نقدي من الذكريات، حتى يوم تحتل امرأة أخرى المكانة التي احتلتها هذه المرأة المتوفية.

لم يكن يتذكر أو يعرف عن تلك المرأة الراحلة سوى شيء واحد فقط؛ تلك القبلة التي نالها منها، والتي كانت مفعمة برائحة نزاعة للحياة، بأقل نداء من الذاكرة لم تعد إليه بهيئة تسلط في لحظة ما؛ بل كانت عادة متمكنة منه، تعود إليه بانتظام فظيع نتيجة لانعكاس آلية طفيفة.

كان الكنز التافه المفجع الذي استعد للحياة لسنوات خلت، الكامن في غياب المجهول؛ يفيق أثناء الليل بغتة، فيحس بأن لسان المربية يبرز على مهل وبصورة أكيدة من الوسادة كأنه زهرة تخرج من أديم الأرض، أو كأن قماش الوسادة قد تحول إلى قطعة من اللحم، رغم صلابته، ورغم شعور لوقا أن اللسان إنما هو قماش فقط؛ فإنه كان يعض على الوسادة وكأنه يمتص رحيق ذلك اللسان إلى اللحظة التي يفيق منها كلية، وهو لا يزال يقبض على القماش البارد أسنانه الهائجة الخانقة المبللة باللعاب، يشد بأسنانه على هذا السراب الذي لا يمت إلى الواقع بصلة، ولا يحتمل وقوعه بأي شكل من الأشكال.

وهكذا يستمر الاختلاط القديم بين القرف والرغبة؛ إلا أنه في هذه المرة لم يكن قرفًا واشمئزازًا لحب خفي وغير نقي؛ بل مبررًا جزئيًّا باشتراك حي من قبل المرأة لقرف ناجم

عن رباط يثير فكرة الموت ككفن لذكرى ورود الموت وصدورها، التي كانت نتيجة خمـــول مفجع لكافة أفكاره.

وبنفس الوقت أحدث ذلك خمولاً بغيضًا تجاه أهله الذين كانوا يتأرجحون في نفسه بين الرغبة والنفور.

شعور القبلة وفكرة الموت كانتا تختلطان ثم تتحدان بانجذاب واحد غامض، يبدو أنـــه يستمد قوته من ألوان الاستحالة والدنس التي تضفي عليه صبغة غامضة ومجهولة.

استلقى على سريره في غرفته، وداعب النوم جفونه كما هي العادة، ثم وبعد أن نـــام عدة لحظات استيقظ مذعورًا يرتعد من الخوف، وينتفض بقوة كلما عادت إلى ذاكرته ملامسة جسم المربية ساعة أن قذفت بجسمها عليه هي والأولاد الصغار.

لقد كانت هي بذاتها بدون مجال للشك في صحة ذلك، وبالفعل وبشكل أقوى مما سبق، كان إحساس القبلة وشعوره بها يكبر على قماش الوسادة، وبدا له كأن الليل بكامله كان يظهر هذا الفم من الظلمات التي تتحول إلى شفاه ولسان في صمت خانق، فتضج بحـــشرجة مـــلأى بحضور لا يقبل الشك.

وكأنما تلك المرأة تود أن تشعره بالبهجة والضوضاء التي كانت تتمتـــع بهمـــا فـــي حياتها، وتسخر من غرور مسعاه وخيلاء مجهوده اللذين يبذلهما في سبيل التحرر.

كان يبدو عليها بأنها كانت تود أن تقول له بسرور حين تقع عليه وتحتضنه:

- هل اعتقدت أنني أصبحت ممن فقد الحياة.. إنني أعيش أكثر مـــن أي وقـــت مـــضى وأنت.. يجب عليك أن تحيا من أجلي أنا..

فلما صحا من نومه مذعورًا اكتشف أنه إنما كان يحلم.. ولكنه في حقيقة الأمر كـــان يحس أن تلك المرأة قد رحلت ولكن بعد أن تركت بصماتها في حياته.

الفصل العاشر

مرض لوقا.. ودام هذا المرض لمدة ثلاثة أشهر.. وخلال الشهر الأول من المرض كانت درجة الحرارة عادية.. وكان لوقا يحتفظ بتلك النظرات الثاقبة، وظل متيقظ الشعور صاحيًا، حتى إن هذا الصحو قد بدا له أحيانًا أنه صفة دائمة من صفاته.

لم يعد يرغب في الموت في هذه الآونة؛ إذ إنه كان متيقنًا من أنه سوف يفارق تلك الحياة.. وكان هذا اليقين منه يطمئن إلى حقيقة واقعة.. كان مقتنعًا بأن أجله قد اقترب، وأن المنايا قد عزمت أن تودي به، فلم يعد أمامه سوى ارتقاب الموت والابتهاج سرًّا بتقدمه التدريجي.

إنه الآن لم يعد يكره نفسه بالصورة السابقة كالوقت الذي كان قد يئس فيه من تمكنه قيادة ثورته إلى النهاية.. على العكس فلقد كان يشعر بإحساس المنتصر لاحتقاره القوى التي كانت في كيانه، والتي كانت لا تزال تقاوم حتى الآن وترغب في إبقائه على قيد الحياة.

إن القوى التي جعلته يحب الدرس ويحب أهله ويحب المربية قد فقدت الآن دعائمها القديمة، وبدأت بالتقلص تقلصًا وصل إلى نهايته قبل أن تتفرق نهائيًّا في موجة الموت السوداء، في ملعقة الدواء التي كانت الممرضة تعطيها له في كل وقت، في شعاع الشمس الشتوي الذي كان يتقدم نحوه حتى يصل إليه، في عيون والدته الولهى، وفي وجه والده المتأثر بالقلق.

كان يريد الموت وتأكد له الموت.. إنه بالقرب منه، وإنه سيموت حتمًا..

ولكن عندما سمع والدته تقول له في نبرة متوجعة وهي تحمسه:

- يا لله.. إنك لم تأكل كثيرًا ألا تريد أن تتماثل إلى الشفاء وتتعافى..

كان يريد أن يقول لوالدته:

- ولكنني لا أريد أن أتماثل إلى الشفاء.. أريد أن أموت..

إلا أن هذه القوى الخفية كانت تلزمه أن يبتسم في وجه والدته بدون رضاه؛ ومن ثم يفتح فمه ويسمح أن ينزلق الطعام إلى جوفه، وقام بعزاء نفسه معتبرًا ذلك من الأمور التي ينبغي له فيها أن يتساهل ويتسامح فيها مع الغير، ولا علاقة لها بحياته هو بالذات؛ تلك الحياة التي أصبحت الآن منفصلة عن الشواطئ القاحلة الحقيرة والتي ارتبطت فيها لمدة طويلة.

في هذه الأحوال بدت له شخصيته الازدواجية التي شعر بتكوينها منذ اللحظة التي بدا فيها الموت هو الحل الوحيد لقطع علاقاته مع العالم، والتي كان من نتائجها أن تضخمت الحالة الثانية بشكل وحيد وعنيف وحاد.

كان لوقا يلعب دوره ببراعة عندما يكون والداه حاضرين؛ وهو الدور الظاهري لمريض عليه أن يشفى، ودور الطالب الذي يتعين عليه أن يعود إلى الدراسة، ودور الطفل المفروض فيه أن يكبر ويصبح رجلاً، ولكن ما إن يصبح على انفراد حتى يعود إلى دوره الذي رسمه لنفسه ويلبس حلة المحتضر المتأكد بأنه مشرف على الموت.. وبالإضافة إلى ذلك كان ينتظر ويتربص اقتراب النهاية بروح مفعمة بالأمل.

كان السرور ينتابه صباح كل يوم عندما يحملون إليه ميزان الحرارة، وعندما ينظر إليه ويرى ارتفاع درجة حرارته عن الأمس.. كان يمتلئ بالبهجة والفرحة عندما يشعر بأن المرض يحمله بصفاء قلبه إلى هذيان يؤدي به إلى الخمول. ولقاء ذلك كان السرور ينتابه وهو يتخيل بأن إحدى الغفوات القصيرة التي كان يسلم نفسه لها من وقت إلى آخر وجسمه يتصبب عرقًا على أثر الحمى المستبدة به دون أن يدري؛ ستتحول إلى موت أبدي.

لقد اكتسبت رغبته في الموت احتدادًا وطبيعة واقعية فريدة؛ فلقد كان يبدو له بأنه يرغب في الموت تقريبًا بنفس الشهوة والحب التي كانت فيما مضى سببًا يدفعه لاحتضان المربية. ويحدث له أحيانًا وهو يفكر أن يدخل في روعه ويعتقد أن الموت هو اللذة الحقيقية التي يحرزها الرجال؛ فقد كانت والدته تقوم أحيانًا بتخطيط مستقبله والمشاريع التي تنتظره بعد أن يشفى من مرضه.

لقد اعتقد في إحدى الليالي أنه سيموت فعلاً، أو بالأحرى اعتقد بأنه يفهم بوضوح المعنى الحقيقي لرغبته في أن يموت؛ إذ بينما كان نائمًا وفجأة ارتخى رأسه حتى أخمص قدميه، وقد أصبح جسده خفيفًا على أثر الضعف والانحلال؛ حتى إن اهتزازه هذا كان أشبه باهتزاز الهشيم الجاف، على أثر قبضة يد شاءت أن تقتلعه من جذوره.

وتطلع حوله بعد تلك الرجفة التي انتابته وجعلته يهب من رقاده، ويشعر على ضوء المصباح الكهربائي –الذي كان لا يزال ينير الغرفة طوال الليل وقد وضع على طاولة صغيرة قرب فراشه– بامتداد جديد مؤلم على أثر رؤيته هيئة غرفته العامة.

لقد فهم بأنه لكي يموت يجب عليه تمريض الحقيقة الخارجية، ولن يموت فيما لو قام بتحريض شخصيته على الموت؛ إذ إن مهمته تنحصر بعد ذلك بإعطاء الأمر لتلك الحقيقة، وجعلها حية.

وفي الحقيقة عندما ولد لم يبدأ الحياة، ولكنه بدأ بسن ما الأحلام المزعجة وغير المعقولة؛ لذلك فكر بأن عليه أن يموت، يجب أن يموت، فعليه أن يستفيد من احتداد الكابوس ووصوله إلى أعلى درجة ليصرخ صوتًا ويستيقظ.

لقد تذكر بأنه أحس بنفس الشعور الكابوس في تلك الليلة البعيدة عندما واعدته المربية.. لقد بدا له بغتة بأن الرغبة في الموت هي قضية تتعلق به بالحقيقة؛ لأنها مهمة سهلة وغير شاقة، ولاسيما وقد علم بأنه لن يموت لأجل نفسه، ولكن فداء للآخرين.. وعلى أثر ذلك ارتسمت على فمه ابتسامة صغيرة.

وشعر بعد ذلك بأن وطأة الحمى تزداد وتشتد حرارتها تدريجيًّا فتلف أعضاء جسمه بغطاء من العرق تحت الأغطية المتعددة والحشايا، وبإحساس من يستسلم للموت والابتسامة على شفتيه أغلق عينيه ونام.

وإذا كانت هذه هي النهاية.. فإنه استسلم لها دون أن يعرف هل هذا هو الموت أم أنها جزء آخر من مراحل تأنيب الضمير والعصيان.

الفصل الحادي عشر

وفي صباح أحد تلك الأيام، وبينما لوقا يخرج من منزله في ساعة مبكرة ليذهب إلى المعهد؛ بدا له أنه قد ميز في عقله إشارات تسبق الحوادث الخاتمة قريبة الحدوث. لقد كانت نوعًا من الانتظار في ذهنه وتوقعًا للعمليات الواضحة، وقلقًا لحادث ما وإن لم يحدث حتى تاريخه؛ إلا أنه متوقع أمام ناظريه ولا يمكن تلافيه.

وشعر لوقا باضطراب طفيف ولذيذ بنفس الوقت، كما أنه لم يكن يشعر بنفسه أنه شخص واحد لا يقبل القسمة؛ بل يحس بأنه مفرق إلى عدة أقسام، ويتماوج كل قسم بجانب الآخر، وقد تجمعت هذه الأقسام في هدوء ثابت لا يتزحزح كبقايا باخرة غرقى في الهدوء الذي يتبع العاصفة.

لقد لاحظ بنفسه أنه يرى الأشياء من خلال نظرة تختلف عن المعتاد، وبالأحرى لم يكن ليدركها، ولكنه تملكها وأصبح سيدًا لها بحاسة جديدة لا يمكنه أن يحدد لها مكانًا من جسده؛ إذ بدت له موزعة في جميع أنحاء جسمه.

ومع ذلك وبنفس الوقت كان يشعر بكآبة مرة لها أسبابها، كآبة مستسلمة خاضعة تجعل من جميع مظاهرها أفعالاً موزونة وأمينة بسبب انقيادها، كما لو أن كل فعل من أفعالها خطوة محتومة لا رجعة فيها تسير في طريق محتم.

لقد كان الطقس مكفهرًا متقلبًا لا صحو فيه، والسماء الداكنة المنخفضة لم تقرر بعد إنزال المطر الذي تشبعت به، وأحيانًا كانت تهب بعض الرياح الرطبة فتدفع الهواء الثابت للحركة.. عندها لاحظ لوقا أوراق الشجر وهي تعود إلى البريق. بينما كانت الأتربة المسمومة وهي تصفر بين الحجارة القاحلة الجرداء لمماشي الشوارع التي يسلكها المارة.

ولكن الريح كانت تتوقف حالاً، وتظل الشوارع المرصوفة بالحجارة جافة لم يبللها المطر المنتظر.. لقد كان الحر في ذلك الوقت يشبه حالة لوقا الفكرية؛ إذ إن كلاهما كانا متوافقين في انتظار شيء واحد، فقد كان على المطر أن يهطل، وعلى لوقا أن يقرر، ولكن شعر بأن السماء قد تسربلت بالغيوم لأجله؛ لذلك لم يكن من الواجب أن يرفع عنها نظره كممثل لا يرفع نظره عن ممثل آخر، لئلا تفوته لحظة دخوله المشهد.

إن أكثر مما يؤثر فيه هو الشعور الجديد الذي كان يوحي له بالأفعال العادية: السير في الشوارع، دفع قيمة بطاقة ركوب الترام؛ ذات الأفعال التي قام بها خلال السنين الطويلة الماضية، والتي لم يكن ينتبه أن يقوم بإجرائها؛ إذ كان مشغولاً أثناء أدائها بالأفكار المختلفة، أما اليوم فإن شعوره يتركز عليها لعدم وجود ما يشغله في حياته العادية، ولم يكن من الطبيعي أن تبدو له الأفكار السابقة المتباينة كأنها أصبحت غريبة وغير معقولة ومغايرة للمنطق بشكل غريب..

ولم يكن هذا الشعور الغريب الذي سيطر على تفكيره متعلقًا بواقع الأفعال وغاية الأمور، كتردده على المدرسة مثلاً؛ فلقد سبق أن رأى هذه الأمور غير المنطقية كتلك الأفعال التي يمارسها كل على حدة.. لماذا يحرك قدميه؟ لماذا لا تداهمه سيارة وتدهسه، لماذا يتوقف لكي يصلح رزمة كتبه تحت إبطه وهو متجه إلى المدرسة أو عائد منها؟ لماذا يضع قبعته على جبينه، ولا يتركها تظهر قسمًا من رأسه؟.

لقد كان واقعه يبدو وكأن هذه الأشياء العادية قد جرى تصغيرها إلى مغلف رقيق من العادات الآلية أوشكت أن تتخلى عنه بعد أن ملها وضجر منها، وتتركه نهائيًّا كما يتخلى الثعبان عن جلده أيام الربيع.. كان يدرك أن هذا الشعور غير مقبول؛ بل باطل من أساسه؛ مما لم يكن من المعقول حتى تلك الساعة، أن ينتهي من الطريق الطويل لثورته وعصيانه.

أما الوقت الحاضر؛ فلم يبق عليه مما يجب فعله إلا أن يقوم بانتفاضة صغيرة، ويقدم على هزة خفيفة لتطير الفقاقيع المملة، وتكهن بأن هذه الهزة لوحدها وبدون شيء آخر كانت تشعره سلفًا بحادث أوشك أن يقع.

وأمام المعهد كانت جمهرة الطلاب السوداء تقل بلمح البصر؛ إذ إن فم البوابة الخاصة بالدخول التي أكل عليها الدهر وشرب كان يبتلع بسرعة الطلاب القادمين إلى المدرسة، ولما وصل في الموعد المحدد لم يتمكن أن ينقطع عن التفكير؛ ذلك التفكير الذي بدا له بأنه طبيعي ومسيطر على حواسه بطريقة استبدادية غير مألوفة.

كانت أجواء المعهد تبدو مظلمة، أو بالكاد فيها بعض الضوء الضئيل، بينما يندفع سيل الطلاب إلى الداخل، ليفرق البناء، وبدا للوقا أن هذا السيل العارم يشبه الطوفان، وأن جميع رفاقه يغذون نفس الشعور الذي ينتابه.

ولما وصل إلى باب حجرة الصف الخاص به؛ دلف إلى مقعده في نهاية الغرفة، والقابع بين خريطتين جغرافيتين.. أما خطوط المقاعد الثلاث التي يجلس عليها الطلاب بازدحام، والمنبر الذي يقف عليه المعلم؛ فقد كانا يوحيان بصورة الطلاب وهم مصغون إلى الدرس، وصورة المعلم وهو يقوم بإلقائه.

كل شيء كان قد أعيد تأسيسه وترتيبه في الصف: فلوقا في مكتبه ورفاقه جالسون كل في مكانه، رغم أنهم كانوا يتدفقون في الدخول إلى الصف بازدحام، بينما المعلم كان قد وصل إلى المنبر، رغم أن المنبر لا يزال شاغرًا، ونتيجة العتمة المتأتية من رداءة الطقس، أشعلت الكهرباء فعكست على ألواح الزجاج الوسخة للنوافذ الكبيرة خيوطًا رقيقة صفراء صادرة عن المصباح الكهربائي.

جلس لوقا في مقعده، وجلس حوله رفاقه؛ كل واحد في مكانه المخصص لــه، ولكــن شعور الآلية غير المعقولة عاوده، وشعر برغبة ملحة ليقوم بحركة ما، ويعــرف مــا الــذي سيفعله رفاقه من جراء هذه الحركة.

ودخل معلم اللغة الإيطالية؛ وهو رجل قصير القامة شاحب الوجه أجعد الشعر يعتنــي بهندامه، وعندما اجتاز الباب راح يزرع الغرفة جيئة وذهابًا.. وبعد أن جلس وراء المنبر في مواجهة الطلاب الذين وقفوا تحية لأستاذهم؛ دوى صوته القوي:

- جلوس...

عند ذلك وتلبية لشعور لوقا الخطر والمسيطر عليه، الذي يطالبه ببدء اللعــب؛ ظــل واقفًا خلافًا لبقية الطلاب الذين جلسوا.

وكان المعلم قد جلس هو أيضًا وهو يفرك أصابعه، ثم سحب من أحد جيوبه منــديلاً نظيفًا مسح به وجهه، وأعاده إلى جيبه مرة أخرى، وسوى جلسته ليكون فــي وضــع أكثــر راحة.

فعل كل ذلك دون أن يرفع نظره عن السجل المفتوح فوق المنبر؛ فاستحوذ على تفكير لوقا.. لو أنه في مكان المعلم لشعر بتسلط لا يحتمل تجاه التلاميذ، ولاسيما فــي أدائــه لهــذه الحركات التي تتجدد يوميًّا، وتتعداها بشكل تلقائي إلى حركات أخرى مماثلة لها.

ومع ذلك فقد ظل لوقا واقفًا، أما المعلم فبعد أن فحص السجل جيدًا، ثــم نظــر إلــى الصف رأى لوقا واقفًا.

فسأله بهدوء:

- ما الخطب يا بني؟

سأل لوقا نفسه في صمت:

- هل أجيب أم لا لزوم لجوابي؟

وبعد ذلك قال بصوت واضح لمعلمه:

- لا شيء...

فقال المعلم:

- إذًا اجلس ما دام الأمر كذلك.

كان للمعلم صوت قبيح النبرات، ولكنه واضح، ورغم ذلك فقد علم الطلاب أنه كــان يلتذ بالاستماع إلى نفسه وهو يتكلم.

ورغم ذلك ظل لوقا واقفًا دون أن يفتح فمه ويتكلم، فتطلع إليه المعلم بدهشة خفيفة ثم كرر له قوله:

- هل سمعت؟ اجلس.

صمت من جديد إلا أن الصف بكامله في تلك اللحظة كان يتطلع إلى لوقا بتعجب مشوب بالفضول، أما المعلم فقد حدق في لوقا وتطلع إليه بنظرة ثاقبة، ثم أضاف بصوت أهدأ من حدته:

- هل تريد أن تقول شيئًا؟

فاجتاحت الصف نظرة من الاشمئزاز، إلا أن المعلم نظر إلى لوقا بدقة خلال لحظة، ثم وبدون أن يقول شيئًا عاد إلى السجل وتطلع فيه ثانية؛ ليستعيد أسماء الطلاب الذين كانوا لم يتكلموا أبدًا أمامه.

كان الدرس حول "المطهر"، وكان من عادة المعلم أن يكلف أحد الطلاب الذين كانوا يتمتعون بموهبة الإلقاء بصوت عالٍ أن يقرأ الفصل أو جزءًا منه، وبعد ذلك كان يأتي دور التعليق واختبار الطالب لمعرفة مدى حفظه لدرسه.

سارت إصبع الأستاذ على السجل بمحاذاة العمود المسجل فيه أسماء الطلاب؛ فتأكد لوقا حينذاك أنه سيكون الطالب المعين لقراءة الرموز؛ وذلك لعدة أسباب:

أولاً- أنه كان يقرأ جيدًا وله إلقاء قوي.

ثانيًا- لأنه كان قد مضت عليه مدة طويلة لم ينتخب خلالها للإلقاء والقراءة.

والسبب الأخير هو أنه قد قام بذلك الحادث لتمييزه عن مجموعة الطلاب الآخرين وجعله محط أنظار الأستاذ، بعد أن رسخ هذا الحادث في ذهن المعلم.

سارت إصبع المعلم بصورة واضحة على العمود الأول من أسماء الطلاب ثم توقفت عند بداية العمود الثاني وقال:

- مانسي لوقا.

فكر لوقا لدى سماع اسمه بأنه لو كان هناك معلم آخر لأردف بعد مناداته بفكاهة أو بكلمة ذات مغزى يجمع فيها بين المناداة والحادث؛ كجملة من هذا النوع:

- طالما أنك تتمسك بالبقاء واقفًا لذلك تعال واقرأ.

ولكن هذا المعلم كان جديًّا ولم يكن يحب المزاح أبدًا.. لقد كان من جملة المعلمين الذين يحتقرون مهنة التدريس فيلقون محاضراتهم أو يعطون دروسهم للطلاب بكسل وبغير مبالاة، وهم يرددون حقيقة وهمية هي أن بإمكانهم أن يفعلوا خيرًا من ذلك. والآن وبعد أن

عين لوقا لتلاوة الدرس كان الموضوع يتعلق فيما إذا كان عليه أن يطيع هذه المناداة أو يعصيها.

وبالمجاملة قدم له أحد رفاقه "مجلد الكوميديا الإلهية"، وقد فتحة مقدمًا على الصفحة المطلوبة.

وقبل أن يلبي لوقا نداء المعلم فكر بأن هذا المعلم وهؤلاء الرفاق يريدون منه أن يعيش ويحيا، وهنا عادت إلى ذاكرته ذكرى المربية، وشعر بأنه قد أصبح قويًّا في قراره.. إنه حاليًّا سوف يطيع ولكن ما إن يعود إليه شعور الطبع العادي لحركاته حتى يرفض الطاعة، ولقد كان يفهم أنه في حالة إعطائه العصيان صفة اللعب الآلي ستكون له قوة في قيادة عصيانه إلى النهاية.

وأخيرًا تناول الكتاب وغادر مقعده من الطاولة الأخيرة في الزاوية البعيدة في الصف وتوجه إلى المنبر.

لاحظ أن النهار قد انخفض بشكل ملحوظ، وبدأت بوادر المطر الغزير تسقط بقطرات متباعدة فوق الزجاج فتتحطم إلى شظايا مائعة تلمع على الزجاج، ومن ثم قطرات أصغر بغزارة، وسالت وهي تلمع وتزحف فوق الزجاج.

وهكذا وجد نفسه متجهًا إلى المنبر بهدوء ومعه الكتاب في يده، ثم توقف لتوه كأن قدماه قد تسمرتا في الأرض وثبت بدون حراك.

لقد ظل بدون حراك ونقاط المطر تخطط زجاج النوافذ، بينما كان المعلم والتلاميذ ينظرون إليه علهم يفهمون السبب الذي من أجله توقف عن الحركة.

وسأله المعلم عندما طال وقوفه:

- نعم؟ ماذا تفعل هناك.. تقدم..

سأل لوقا نفسه كم من الوقت سيمكنني أن أقف في مكاني بدون حراك؟ كما أن عليه الآن أن يتناولني بالقصاص والعقاب.. ولكن هذا العقاب بالذات بدا له خيرًا من الطاعة الآلية التي اعتاد عليها، فالقصاص يجلي طبع الحياة الصالحة بشكل واضح وبدون أقل إخفاء للنفاق أو تعرض للرياء..

ثم سمع المعلم يقول وهو يكرر في الصمت المهيمن والمسيطر على الصف:

- إنني أكلمك.. أجبني.. هل تشعر بألم ما؟

وسرت في الصف همهمة من التعليقات إلا أن المعلم قطعها بسرعة بضربة مسطرة على المنبر وهو يصرخ:

- هدوء...

وبعد أن حان الوقت أجاب لوقا بجهد عسير:

- لا شيء.. لا شيء...

ثم شعر برجليه تقودانه إلى المنبر الجديد، وعادت الهمهمة وتبادل الطلاب الهمس، وللمرة الثانية فرض المعلم السكوت ولكن بدون أن يضرب بالمسطرة على المنبر، وبصوت أقل شدة من الأول.

ثم تحول إلى لوقا وقال له باقتضاب:

اقرأ ابتداءً من السطر الخامس والثمانين من الفصل الخامس.

فأحنى لوقا رأسه وابتدأ في القراءة:

"ثم قالت أخرى سيكون من النعمى لو أن هذه الرغبة تتم وتجذبك إلى القمة الشامخة".

"وعندها مد يدك برفق وعن طيبة قلب لتنقذني".

لقد كان لوقا قارئًا ممتازًا، بدا على المعلم وهو يستمع إلى صوته المعبر أنه انفرج قليلاً، كما وأن نفحة من المواساة خففت الأزمة ومرت على الطلاب في الهواء المظلم.

وبينما استمر لوقا في القراءة بصوت جمهوري واضح كان لوقا قد تسلط على فكره شعور جديد؛ فقفز –إن جاز لنا التعبير– خارج رأسه متجهًا إلى آخر الصف؛ حيث المكان المحاذي للحائط. هذا المكان الذي كان ينظر إليه، والذي أعاد له الشعور برؤية الأشياء العادية وكأنها غريبة وتعسفية.. شعور مؤلم وبنفس الوقت ضيق ولذيذ.

ولكنه أحس بأنه يقرأ بعنف وقسوة وفق نفسية الشاعر وما تتضمنه من معانٍ غريبة تتوافق جيدًا، ونفسية الشاعر من حيث الشعور الذي كان يحس به.

وتذكر جميع الأوقات والمناسبات التي واجه فيها بعين الرضى الرغبة بموت كامل شامل مجهول غامض وعلى انفراد.

ثم أكمل القراءة فوصل إلى الأبيات الثلاثة التالية:

"هناك وحيث سيصبح الاسم بدون جدوى

سأصل إليك والرقبة دامية

سأصل إليك مريضة الحنجرة.

مدماة القدمين وقد صبغت بهما السهل.

هناك حيث سأفقد النظر والكلام.

لم يبق مني بعدها شيئًا سوى الجسد الطريح.

شعور مباغت من الشفقة الغامضة والمعذبة طغى على حنجرته.. لقد شعر بشفقة نحو نفسه، حركها لأول مرة عندما تخيل بأنه قتل، ثم دفن في الساحة المدورة من الحديقة العامة، وإذا بهذه الشفقة تتولد في شعوره وتتركز في ضميره كنداء إلى واجب مهم وحزين لا بد من تلبيته ولا يمكن التهرب منه.

ومع ذلك ظل يقرأ بصوت أقل ثباتًا وعزمًا، ولكنه مؤثر وأخاذ، وبنفس الوقت كان شعور الفكرة التي قام بها يطغى عليه ويتمادى في رغبته الملحة ليعلن العناد والعصيان، إلا أن هذا الشعور المتسلط عليه كان ممزوجًا بشعور الشفقة الجديدة؛ ذلك الشعور المؤلم والمذهل بآنٍ واحد.

قرأ بعد ذلك بعض المقاطع، ثم سأل نفسه عما إذا كان لزامًا عليه أن يثابر على القراءة أم يتوقف ليبدأ العصيان.

لقد كان يعلم جيدًا بأن طرح هذا السؤال على نفسه معناه التوقف عن القراءة، وبالفعل فبعد أن قرأ بيت الشعر وردد المقاطع بجرس غامض من الشعر:

"حينئذٍ اختفى الوادي كما يختفي النهار"

توقف عن القراءة كأنه عقل صامت كئيب.

وأطبقت السكينة على غرفة الصف برهة وجيزة، ما لبث بعدها أن سأل لوقا قائلاً:

- نعم؟

وساد الصمت في الصف ثانية على أثر ذلك؛ صمت خاص بانتظار حدوث واقعة طارئة.. كان الجميع ينقلون أبصارهم من المعلم إلى لوقا، ومنه إلى المعلم، ولكن لوقا لم يعد يرى أو يسمع شيئًا على الإطلاق.. لقد كان يفكر بأنه قد فقد الحياة.

ولكنه فجأة أحس بغتة بوجع حاد، ثم سمع اسمه يلفظ فرفع عينيه، وحينئذٍ تدحرجت دمعتان على طول خده؛ فتطلع إليه المعلم بدهشة شديدة محتقرة، وقال:

- هل لنا أن نعرف ماذا جرى لك؟ هل تريد أن تقرأ أم لا؟

فكر لوقا بأن من الواضح عليه أن يظل طالبًا إلى النهاية، حتى ولو رغب الموت.. فانتظر لحظة ثم سأل:

- هل لي أن أكمل الرواية؟

وتعالت الضحكات والتعليقات من كل مكان في الصف المعتم، فأعطى المعلم إشارة لفرض الهيبة والنظام في الصف، ثم وجه حديثه إلى لوقا قائلاً:

- ولكن حسب اعتقادك أين كنت؟ ولكن على كل حال عليك أن تكمل القراءة.

كان لوقا لا يزال مضطربًا وقد تناثرت دموعه فوق خديه، وتوقفت فوق وجنتيه فزادته اضطرابًا فقال في سره:

- سأقرأ إلى نهاية الحادثة التي عرضت بالرواية؛ لأن هذه هي قصة حياتي.. ثم سوف أتوقف عن القراءة.

وجمع قواه وبصوت عالٍ جعل نبراته أقوى وأوضح؛ لاعتقاده الأكيد بأنه يقوم بقراءة وصف لموته هو لا موت الشخصية التي وصفها دانتي.. وعندما بدأ تلاوة الأشعار بدا له أن المعلم ينظر إليه بفضول أكثر من الاستماع إليه، ورفاقه بدورهم كانوا ينتظرون منه أن يقدم على عمل شاذ جديد، أو أن يتهور ويتوقف عن القراءة مرة أخرى.

قرأ بدون صعوبة الجزئين الآخرين من القصيدة، وبعد ذلك حدث ما كان يتوقع حدوثه لدى وصوله إلى البيت الثالث:

"ثم قام بتغطيتي ونظر إليَّ بشفقة".

إذ توقف عن القراءة من جديد.

وفي هذه المرة انفجر الصف بكامله بضحكات مسرورة، وإن كانت ناتجة عن الدهشة لهذا التهوس والعصيان السلبي، فحاول المعلم تهدئة هذا الشعب بأن وجه الحديث إلى لوقا وقال له بصوت عادي:

- يبدو أنك مريض.. البس معطفك وعد إلى البيت.. سأبحث هذا الموضوع بعد بضعة أيام.

وأراد لوقا أن يخبر المعلم بأنه في أحسن الأحوال، ولكنه شعر ببرودة تجول في جسده وقد لحقت بها نفحة حارة صدرت من داخله، بينما البرد يسيطر على جسده فيرتجف، وفهم بأن المعلم كان بدون شك محقًّا في طلبه مغادرة الصف والذهاب إلى البيت.

وفكر لوقا محللاً موقفه من خلال نظرة رفاقه ومعلمه، وحكمهم عليه بقبولهم أو رفضهم لموقفه؛ فإما أنهم يعتبرونه شخصًا مريضًا أو تلميذًا يستأهل العقاب.. استحوذ هذا التفكير عليه واستولى على عقله، وهو يتناول الكتب التي جمعها له رفيقه وقدمها له باهتمام مشفق واستغراب في آنٍ واحد معًا.

كان الجميع ينظرون إليه بصمت، والمطر ينهمر بغزارة على زجاج النوافذ، ولم يتمكن لوقا لدى رؤيته لهذا المطر وهو يتساقط من أن يقول لنفسه بأن هذا هو المطر ذاته الذي رآه في مخيلته يغلف جسده، ويلفه؛ ومن ثم يطوح بهذا الجسد الذي لا حراك فيه.

وبينما كان يأخذ كتبه ويتأبط محفظته، ثم يتوجه نحو آخر الصف؛ التفت حوالي ثلاثين رأسًا، وجهت نظراتها إليه وهو يغادر المكان.

ونادى المعلم على تلميذ آخر ليتولى القراءة بدلاً من لوقا.

بينما تناول لوقا معطفه وخرج من الصف.

واجتاز بسرعة الممر وخلال الأبواب المفتوحة في صفوف أخرى؛ كانت هذه الصفوف فيها الطلاب وهم ينصتون إلى محاضراتهم التي يلقيها عليهم أساتذتهم بكل انتباه.. ولقد كانت أصوات المعلمين كلها تتشابه في أذن لوقا الذي هبط الدرج ووصل إلى عتبة الباب؛ فوجد نفسه بغتة في طراوة رطبة.

لقد كانت السماء تمطر سيولاً شديدة، والطرق أصبحت شبه جداول، والرياح أضحت مخططة، وخلال هذا البياض وهذه الخطوط البيضاء كان من حين إلى حين آخر يلمع ضوء البرق ساطعًا مضيئًا.. لقد سمع هزيم الرعد من بعيد، ثم سمعه من مكان أقرب مع جلبة مدوية وطويلة صادرة عن انهيار الثلج الذي انتهى بضياء باهت، كان يعطي الإشارة للمطر بعنف متجدد، وآنئذٍ ترك لوقا الباب الخارجي، وبدأ السير وهو حاسر الرأس تحت الطوفان، وبدا له بأن المطر قد بدل المدينة بكاملها إلى مجموعة أنهار وسيول؛ إلى مياه عمودية رمادية ترتفع حول البيوت، وإلى مياه صفراء تمور حول مماشي الشوارع، كما حول خيال المارة غير المستقر الذين كانوا يركضون ليلتجئوا تحت الشرفات، إلى طيف مائي مرتجف، أما مصابيح الغاز فقد كانت تبدو كأنها تتمرجح لكونها سوداء ورفيعة، وعربات الترام تعتم ببقعها الخضراء نهاية الشوارع.

كان المطر يهطل من إحدى الجهات، ثم بعد أن يتغير اتجاه الهواء يصب من ناحية أخرى، وهكذا حتى كاد المرء يعتقد بحتمية هذه العادة، وأن المطر يهطل وفق منهاج منظم.. شعر لوقا بالماء يغمر شعره، حتى لقد أصبحت الكتب التي كانت تحت إبطه مبللة بالماء. وفي أثناء الطريق وضع رجله في بركة صغيرة فوصلت المياه إلى كعب رجله.

ومنذ اللحظة التي غطست فيها رجله في الماء شعر بكراهية وعدم رضى، على أثر كل خطوة يخطوها؛ لأن قدمه كانت تخوض المياه الموحلة التي ملأت حذاءه، وهكذا كان يسير على مهل في الماء وتحت سيل المطر المنهمر وصل إلى بيته.

وما إن وصل إلى غرفته حتى ارتمى فوق سريره وهو يرتعد من البرد، وترتعد معه جميع أعضائه، وهذا الارتعاد هزه كليًا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وراحت أسنانه تصطك في فمه محدثة صريرًا عاليًا، وبقساوة كأنها أحجار النرد ترمى بعنف على طاولة الزهر.

كان يشعر بأنه محموم يرتعش بكامله من البرد، ولكن بنفس الوقت شعر بحرارة قوية بدت له كأنها تزيد قوتها؛ لضعف ما هي عليه بفعل الجليد، وأن هـــذه الحـــرارة الممزوجـــة بالجليد تطوف بكامل جسمه وتغزو وجهه.

ثم سمع صوت باب غرفته قد فتح، ولكنه لم يتحرك؛ إذ إنه كان متمددًا على ظهـــره، رأسه في أسفل السرير وقدماه فوق المخدة.

ودخلت عليه والدته وقالت له وهي متفاجئة من وجوده:

– ماذا تفعل هنا؟ ماذا أتى بك؟ أليس من المفروض أن تكون بالمعهد الآن؟

أجاب لوقا مكرهًا:

– أعتقد بأن الأمر على غير ما يرام.

وبعد ذلك شعر بيد والدته تلمسه على جبينه ثم وهي تصرخ:

– ولكنك تحترق.. يجب أن تنام الآن فورًا.

وفي تلك اللحظة دقت الساعة في المذياع معلنة انتصاف النهار.

الفصل الثاني عشر

وظلت الحال هكذا إلى أن استيقظ لوقا ذات يوم، فوجد امرأة جالسة بجانبه وهي تحاول لمس جبينه بيد وتسقيه باليد الأخرى.

امرأة لم يكن يعرفها، وتأكد له أنها بصورة أكيدة لم تكن شخصية من الشخصيات التي كان يهذي بها في مرضه الشديد. لقد كانت امرأة من لحم ودم وليست من بنات أفكار المرض اللعين.

لقد بدت له وقد أحاطت رأسها بشريط أبيض يبدو تحته الوجه الأسمر المتعب، ولكنه وجه لطيف؛ وجه امرأة ناضجة وقد اعتنت بمظهرها وبمحاسنها جيدًا.. لقد كان هذا الوجه مستقيمًا يعلوه غرور العصفور على رقبة طويلة مدورة، وعندما لفظ لوقا جملة مبهمة من هذيان المرض لا يتذكرها يشكرها فيها؛ غزت عيني هذه المرأة اللامعة والغارقة في بحر من الجاذبية شعلة من الاستئناس المؤثر، بينما افتر ثغرها العريض عن ابتسامة منطلقة، تنم عن فرح وسرور.. لقد كانت تلك الابتسامة مؤثرة نابعة من القلب، أظهرت أسنانًا بيضاء نظيفة.

ولقد علم أن تلك المرأة لم تكن سوى الممرضة التي أحضرها والده لكي تسهر على تمريضه، والذي اعتقده في أول الأمر شريطًا أبيض لم يكن سوى قماش أبيض تسرب إليه ضوء النهار، وبجانب سريره وجد سترًا منصوبًا كان يوجد في غرفة الاستقبال، وبدا له أن وراء هذا الستر سريرًا منصوبًا لشخص.

قام لوقا بحركة تشير إلى أن ضوء النور يبهر عينيه ويزعجه، فقامت المرأة على الفور وذهبت إلى النافذة لتحجب النور المتسرب منها، وكانت تلبس ثيابًا بيضاء تلفها بالبياض من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وتبين للوقا أن رأسها كان دقيقًا وناعمًا يشبه رأس العصفور الشرقي، إلا أنه ممتلئ من جراء ياقة القميص الذي ترتديه.

وبعد أن أنزلت الستائر لتغرق الغرفة في الظلام؛ عادت لتجلس بجانب السرير، ومدت يدها لتسند رأس لوقا، بينما كانت اليد الأخرى تقدم له ملعقة الدواء، ورأى لوقا أن يديها كانتا طويلتين سمراوتين، وأظافرها كانتا مطلية باللون الأحمر الوردي، وهي تلبس في إصبعها خاتمًا صغيرًا مزينًا بفصٍّ أحمرٍ قانٍ.

عند ذلك بدأ ضباب الهذيان يتشتت ويتبدد شيئًا فشيئًا، ورغم أن لوقا ظل في حالة انحطاط في القوى وضعف مميت، يلازمه انخفاض في درجة الحرارة؛ فقد تمكن من تفهم وضع شاذ فريد وجديد كليًّا بالنسبة له.. لقد بدت له جميع الأشياء في غرفته مكسوة بحلة جديدة، فالمربية مع كل ما بها من نضوج وتشويه في الهيئة، وغرفته القديمة، وجميع الأشياء التي تحتويها الغرفة؛ أحس لوقا وشعر بأنها جديدة نظيفة رائعة ومحببة، وبكلمة واحدة لقد كانت شهية تفرح النفس وتملؤها بالأمل.

كانت الممرضة امرأة جميلة ناضجة، ولكن نظرات لوقا استطاعت أن تخترق حاجز الماكياج، وأن تشاهد أن هناك بعض التجاعيد التي لم تستطع أدوات التجميل أن تخفيها عن عينه.. وأحس لوقا برغبة في أن يمد يديه ويتحسس ذلك الوجه الجميل، وكأنه يتحسس نوعًا من الفاكهة لذيذة الطعم.

لقد فكر لوقا بأن هذه السيدة ربما كانت جميلة جدًّا في شبابها، وكم قسا عليها الزمن وكم جنى عليها ذلك الجمال الريان. إلا أن هناك إمارات تدل على أنها سيدة غنية وحرة، وإن كانت تمارس مهنة التمريض فلأنها فيما يبدو لديها كميات كبيرة من الحنان.

ولكن بدا له بأن الميل الطبيعي الذي يشعر به نحو هذه المرأة لم يكن مستمدًا من أصل غرامي أو عشق كالعشق الذي أحس به سابقًا نحو المربية، وبالفعل فلقد كان نفس الشعور الذي أحس به سابقًا نحو زجاجات الدواء، حتى إذا نقل نظره من هذه المرأة وتطلع إلى الغرفة؛ شعر بأنه يحس بهذا الميل الطبيعي نحو الأثاث الذي لم يعد يزعجه؛ بل أصبح أليفه الهادئ الذي يشبه في وجوده الثابت قدامى الأصدقاء المحببين.

وبلغت دهشة لوقا ذروتها عندما قامت الممرضة بغسل وجهه بعد أن فرغ من تناول الطعام، وأخذت الطبق الذي كان يأكل فيه، وذهبت لتضعه على المائدة أمام النافذة، وبعد أن قامت بعملية تنظيف المكان من بقايا الطعام غادرت الغرفة لتعود بعد قليل وهي تحمل إبريقًا من الألمنيوم مملوءًا بالمياه الساخنة، مع قطعة من الصابون.. وبعد أن وضعت الإبريق بجانب السرير جلست بجانب لوقا، ورمت قطعة الصابون في الماء.

وبينما أصابعها الخفيفة تغسل وجه لوقا بالماء والصابون، ومن ثم تمسح وجهه على مهل بقطعة من الإسفنج مبللة بالماء العذب الفاتر؛ شعر لوقا أنه اكتشف ما لا يدري كنهه من الكياسة واللطف والزلل في خديها السريعي العطب.

وعندما انتهت الممرضة من غسل وجهه وتنظيفه رجته أن يمسك بالمرآة، بينما تقوم بتصفيفه، وبينما هو يرنو بوجهه إلى المرآة شاهد وجه الممرضة الشاحب الهزيل من خلال المرآة التي يمسكها، ثم تملكه تعجب شديد من الشعور الذي تملكه عندما رأى وجهه في المرآة؛ فلقد رأى وجهًا قد أضنته الحمى وبدت له جفونه وقد كسرها السهاد، أما تقاطيعه فكانت تبدو وكأنها غارقة في خضم حمى المرض والهذيان، مشابهة ضباب عاصفة هوجاء لمشهد قد عصف به الريح وبدل معالمه.

لاحظ بأنه يشعر بحب هذا الوجه؛ وجه مراهق ينظر إليه بعينين مفكرتين.. لقد لاحظ أنه في نظرته إلى ذلك الوجه شعر بنفس الحب الذي شعر به نحو الممرضة ونحو جميع

الأشياء الأخرى، ولكنه وقد تذكر البغض الذي غدا فيما مضى نفسه؛ بدا له هذا الوجه مهمًّا في هذا البدل.

انتهت الممرضة من تمشيط شعره، وشاهدها وهي تقوم بفرقه، ولكن لم يشك لحظة في أن تلك السيدة تحاول أن تفرض عليه ذوقها العام؛ إذ إنها كانت تجهل أنه لا يفرق شعره، ولدهشته فإن الشكل العام كان جميلاً، وكانت شيئًا جديدًا محببًا، وشعر بالجميل تجاه الممرضة التي قامت بفرقه.

وبعد أن تناولت الفوطة من فوق السرير خرجت، ثم عادت بعد لحظات وجلست كما هي عادتها، خلف الطاولة الصغيرة الكائنة بالقرب من رأس السرير، وهي تحمل كتابًا في يديها، ومن خلال الحركة الأليفة الهادئة بدت الغرفة كأنها مشحونة بجو من السرور الهادئ اللطيف.

قال لوقا بعد أن ظل مدة طويلة صامتًا بدون حراك أريد أن أجلس فوق السرير.

وقالت الممرضة:

- انتبه لكيلا تصاب بالبرد.

وبعد أن أجابت خرجت من الغرفة ثم عادت ومعها وسادتين، ثم انحنت فوق ظهر لوقا وهي تساعده على الجلوس في سريره، وقد دفعت بالوسادتين وراء ظهره.. وهذا المجهود وحده كان كافيًا بالنسبة إلى لوقا ليشعر بآلام حادة ودوار يعتري رأسه.. بعد أن أصبح زائغ البصر والنظرات كما لو كان على استعداد للتقيؤ.

وبعد أن ساعدته في الجلوس وتأكدت بأن جلسته الجديدة مريحة عادت لتجلس في مكانها المعتاد.

وبعد لحظة سألها لوقا:

- كنت مريضًا جدًّا، أليس كذلك؟

- أجابت الممرضة:

- أجل مريضًا جدًّا.

- كنت أرغب في الموت.

قالها بتلك الكلمات الصادقة الصريحة.

فقامت الممرضة وداعبت شعره بيدها ثم حدقت به وهي ترنو إليه بنظرة مداعبة:

- ولكنك ستشفى الآن.

قالت ذلك بنبرة لطيفة.

فنظر إليها لوقا من خلف جفونه التي داعبها الكرى ولم ينبس ببنت شفة.

- ولكنك ستبرأ إذا كنت مطيعًا تقوم بكل ما يجب عليك أن تفعله.

وبدون أن ينبس ببنت كلمة تناول يدها وبدأ يقبّلها على مهل كأنه يفكر وقد اغرورقت عينيه بالدموع الغزيرة.

الفصل الثالث عشر

في أمسية من أمسيات نقاهة لوقا. وقد أوشكت تلك الأيام أن تأتي إلى نهايتها، وبعد أن تعب من القراءة؛ أخذ النعاس يداعب جفونه، وقد أراح رأسه على الوسادة وظهرت له الممرضة على عتبة الباب قائلة له، ويبدو على مظهرها أنها سعيدة بالحالة التي وصل إليها لوقا وقد تماثل إلى الشفاء.. وقد كان مظهرها ينبئ عن مظهر إنسان سوف يسوق له الأنباء السارة وقالت:

- استعد يا لوقا لكي تأخذ حمامًا بعد تلك الغيبة الطويلة عن الماء.. إن البانيو على وشك الامتلاء بالماء الآن.. وبعد لحظات يجري هذا الماء على جسدك.. يا لها من فترة طويلة لم تشاهد فيها الماء، أليس كذلك يا عزيزي لوقا؟

فسألها لوقا بدهشة:

- أستحم؟ ولكن ألا أصاب بالدوار وأنا لم أشف بعد.. إنني أحس بالضعف؟.

فأجابت المرأة بلهجة من تعود إصدار الأوامر والطاعة:

- لا تخف.. سأكون بجانبك ولا تخشى الوقوع فلسوف أسندك كي لا تقع.

وبدأت المرأة في الاستعداد وتهيئة المكان بالحمام... وأخذت تغادر الغرفة لتعود إليها بحركات وخطا مضبوطة لمباشرة تلك العملية التي تعودت وتمرست عليها، وهي الممرضة التي تقوم بعملها على خير ما ينبغي.. تلك الحركات التي تخالف بل وتعاكس حركاتها وتصرفاتها كامرأة في المجتمع. وعلى كل فقد بدت للوقا -وهي تعد لوازم الحمام- أنها مسرورة من هذه الخطوة الجديدة له وهو يتماثل للشفاء، أما هو فكان يشكر لها ذلك الجميل الذي أسدته إليه وسهرها لراحته طوال فترة مرضه.

ولكن فكر بنفسه بعد أن انفرد بنفسه في حجرته إنه ليس أكثر من مريض بالنسبة لها. مريض من مئات المرضى الذين التقت بهم تلك السيدة طوال عملها على مر السنين التي مارست فيها تلك المهنة حتى تم شفاؤهم، وليس هنالك من سبب لتسر لشفائه، بل وبصورة أوضح وقد يكون لديها من الأسباب ما يجعلها غير مسرورة لهذا الشفاء الذي يعني بالنسبة إليها الاستغناء عن خدماتها، ولن يبقى بالتالي من موجب لدفع راتبها نظير تعبها.

خرجت الممرضة من حجرته، ثم عادت إليه وهي تحمل برنسًا للحمام مدته على المدفأة لكي يبدو ساخنًا بعض الشيء؛ ومن ثم توجهت نحو دولاب ملابسه وفتحته وتناولت روبًا دي شامبر مصنوعًا من الصوف كانت والدته قد قامت بشرائه خصيصًا له لكي يلبسه عندما يتم شفائه، ثم وضعت الروب على مقعده الذي بجانب السرير، كما وضعت على الأرض جواربه ثم قالت له:

- إنه سيكون حمامًا لذيذًا وساخنًا، وسترى أنك شعرت بتحسن ملموس.

لفظت الممرضة هذه الكلمات وكأنها تحدث نفسها. إن نبرات صوتها كانت تتحدث عن السعادة بضرب من الغفلة الطبيعية الودودة، كما لو كانت بالفعل نابعة من قلبها، ولم تقلها لتسر بها لوقا فقط، وبعدها خرجت من الغرفة، وقد تركت الباب مفتوحًا.

كان الحمام بالجهة الثانية من الممر، والمسافة بينه وبين غرفة لوقا قريبة بحيث إن لوقا كان يسمع بوضوح انسياب الماء إلى البانيو، وتغيبت الممرضة مدة طويلة كما لو أنها كانت تنتظر امتلاء البانيو بالماء الساخن، ثم وعلى حين غرة ظهرت فجأة وكانت تلهث وكأنها عادت لتوها من هجوم مفاجئ. وتناولت الروب دي شامبر وقدمته إلى لوقا وهي تقول له:

- هيا... هيا.. لا تكن كسولاً فالحمام جاهز... عجل بالنهوض من الفراش.

ولا خلاف في أن لوقا لو كان بغير هذه الحال لاعتراه الخجل من الوقوف. فما كان يبغضه في الماضي وينفر منه غدا الآن يتقبله بكل رضا وسرور.

عندما رفعت الممرضة الأغطية عن السرير، وجلس فيه شعر برأسه يدور به، وأن الدم قد زايل وجهه، على حين طلبت الممرضة ذلك وكانت تقف أمامه ويداها تحملان له الروب دي شامبر، ولكنه دون أن يفكر بمغادرة السرير تأخر بتنفيذ رغبتها وهو فريسة سوء انحراف المزاج، وقد جلس على حافة السرير متدلي الساقين أصفر الوجه.

أما الممرضة التي فهمت ما يدور بخلد لوقا، فقد رمت بالروب دي شامبر وتوجهت إليه قائلة:

- إنك فيما يبدو تحس بالضعف وهذا طبيعي.. انتظر فلسوف أساعدك على أن تقوم من السرير.. اتكئ عليَّ.

قالت له ذلك ثم تقدمت منه.. وهي تحيط جسده بذراعها القوي على قدميه، وخلال اللحظات الأولى شعر لوقا بأنه لا يستطيع الوقوف على قدميه وأنه يحس بالضعف والهزال يجري في جسده.

وظهر ضعفه وكأنه فراغ يحاكي أقدامه، ولكن بدون أن يكون له أي مادة أو شكل ليدعمانه.

وقالت له الممرضة بتلك اللهجة الآمرة:

- الآن البس روبك.. يا لله عجل يا رجل..

ولم يدر بنفسه إلا وهو يخضع لتلك المرأة، ويعطيها يده لكي تدخلها إلى أكمام الروب العريضة، وهو يقف بلا حراك، ولكن الممرضة كانت أثناءها تلف جسده بذلك الروب السميك وهي تقول له:

- والآن سر ولا تخف شيئًا.. لا تخف أنا هنا معك..

وكانت تمسكه من قامته، وسار لوقا بضع خطوات، إنها خطواته الأولى منذ أن داهمه ذلك المرض، وكان بطنه يلتصق ببطن الممرضة التي كانت تمسكه من خاصرته. كانت علامات التردد والشك تظهر على وجهها ممزوجة بأمارات الإخلاص في آنٍ واحد، وكأن القوة والعزم اللذين كانا ينقصانه قد استمدهما من مظهر هذا الوجه، ومن تماس تلك الذراع القوية التي تحيط خصره؛ فشعر أن كل خطوة من الخطوات التي تخطوها قدماه قد انتعشت وأخذت عزمًا وثقة منها، وكان ذلك العزم وتلك الثقة يسريان في أوصاله ويصلان إلى ساقيه وسائر جسده ويسبغان عليه شعورًا جديدًا ولذيذًا مفعمًا بالأمان والطمأنينة، وهو نفس الشعور الذي أحس به لدى رؤية أثاث غرفته الجديدة، وأعجب بذلك الأثاث عندما أفاق من غيبوبته وكابوس هذيانه؛ أحس بذلك الشعور يراوده من جديد وأحس فجأة أنه مشتاق إلى هذه الأرض التي يسير عليها، وأنه يتعافى أكثر فأكثر كلما سار عليها، وقال وهو يحاول التنفيس عما يجول في خاطره:

- قد يكون من الجائز أنني ضعيف القوى، كما بدا لي ذلك في أول الأمر.

فأشارت الممرضة برأسها موافقة على ذلك، وهي لا تزال تحيطه بساعدها، وخرجا من الغرفة متشابكين، فبدت عليه الطمأنينة ونظر إلى الشقة وعلم أنها كانت خالية من الظلام الذي يسيطر عليها والصمت المهيمن على الممشى.

ومن ثم دخلا إلى الحمام سويًّا، ولوقا ما زال متشبثًا بها، وبعد أن أجلسته على مقعد الحمام الصغير أغلقت الباب عليهما.

كانت الحرارة في غرفة الحمام خانقة تشبه الحرارة المنبعثة من الحمامات التركية، والحوض قد امتلأ بالماء المتدفق من الصنبور، وأغلقت الممرضة الماء وأخذت الصابون ووضعته فيه.

ورغم أن لوقا كان في قمة الارتباك ولم يدر ماذا يصنع فقد خلع الروب دي شامبر فأخذته الممرضة وعلقته على المشجب القريب من الباب، وعندما لم يبق عليه من الثياب سوى البيجامة فكر بأن عليه رجاء الممرضة أن تغادر الحمام، ولكنها لم يبد عليها أدنى اهتمام بحالة لوقا النفسية التي تسيطر عليها نتيجة وجودها معه في الحمام، ولم تلاحظ الارتباك الظاهر عليه؛ فقرر لوقا أن يقوم بما تمليه عليه دون أن يناقشها في ذلك أو يعارضها.

وبلهجتها الآمرة قالت:

- عليك أن تخلع ثيابك وتدخل إلى الماء، وبعد ذلك سوف أقوم بإرغاء الصابون عليك.

وبتلك الطاعة العمياء سمح لوقا للممرضة أن تخلع له سترة البيجامة، وعندما انحنت لتقوم بخلع السروال والحذاء الذي يرتديه انتصبت حالاً وقد احمر وجهها، فاعتقد لوقا بأن هذه الحمرة كانت نتيجة الجهد الذي بذلته لتنحني وتخلع له القسم الأسفل من ثوب الحمام.

مكث لوقا برهة مترددًا أن يدخل إلى الماء، رغم كونه قد أصبح عاريًا لا يستر جسده شيء من الثياب، ولكنه شعر مرة أخرى بأن الذراع القويةَ للمرأة تحوطه بلطف، وتدفعه إلى المغطس. كان قد وضع جسمه في الماء بادئ ذي بدء، ولكنه أتبعه بالقدم الأخرى وبدأ يغطس جسمه في الماء رويدًا رويدًا.

وسألته الممرضة وهي تنظر إليه بنظراتها الثاقبة:

- كيف تشعر الآن؟

فأجابها لوقا:

- إنني ضعيف جدًّا.

والحقيقة أنه بينما كان يستحم في المياه الساخنة لم يدر كيف شعر أنه في حاجة إلى الغثيان.. ورغم ذلك قالت له الممرضة:

- يجب أن تقف في المياه الساخنة بينما أقوم بتدليك جسدك بالصابون؛ ومن ثم تقوم أنت بغسل جسدك بنفسك، وتخرج من الماء فورًا؛ لأن الحمام إذا طالت مدته فإنه يضرك، خاصة وأنت ما زلت ضعيفًا بعد.

فنظر إليها لوقا، ثم تطلع إلى نفسه وهو في المغطس، فتراءى له جسده يتماوج مع الماء، وألهمه ذلك شعوره بالمحبة. وكما أحب وجهه منذ وقت قليل عندما نظر إليه في المرآة ولأول مرة بعد أن شفي من مرضه؛ أحب جسده وعشقه بدافع من شعور غامض.

وقال للممرضة:

- ليكن ما تريدين..

وأخذت الممرضة تدلك جسده بالصابون بحمية ونشاط، حتى انتهت من عملها.

وقالت له:

- الآن عد سريعًا إلى الماء..

وبطاعة عمياء اندس لوقا مرة ثانية إلى الماء ليزيل آثار الصابون.

بينما خرجت الممرضة من الحمام، وعادت بعد لحظات وهي تحمل على ذراعها برنسًا نظيفًا. وقالت له:

- أسرع.. أسرع.. عليك بارتداء هذا..

فقام لوقا، وتردد قليلاً وقد وضع قدمه على حافة المغطس؛ ومن ثم خرج من الحمام وعلى الفور وضعت الممرضة البرنس عليه في نوع من التودد الدافئ.

وسألته:

- هل أحسست بالدفء أم لا تزال باردًا؟

أما لوقا وقد أحس بالدفء يغمر كيانه وأحس براحة؛ لم يمكنه أن يمتنع عن إبداء رأيه بذلك الشعور الجديد، وقال:

- أحس بالدفء.

وأردفت الممرضة قائلة:

- والآن عليك أن تجفف جسمك جيدًا.

فجلس لوقا على المقعد الصغير، بينما ركعت الممرضة أمامه، وأخذت في تنشيف جسده.

كانت تقوم بعملها بكل جد واجتهاد، وتستعمل مهارتها في تجفيف جسمه، حتى أصبح وجهها مضرجًا بحمرة وضاءة زاهية.

فلقد كان يكمن في ركعتها هذه إحساس غامض من العبادة والعشق؛ جعلت لوقا حائرًا مضطربًا موزع الفكر.

وأحس لوقا أن الصدفة شاءت أن تجمع بينه وبين تلك السيدة في شقة خالية وحيدين، وأن ما حدث منذ بضعة شهور خلت بينه وبين المربية؛ كان على وشك الحدوث الآن، وعلى وشك أن يعيد الحدث نفسه مع فارق بسيط؛ هو أنه آنذاك كان في حالة فكرية مضطربة، أما الآن فلسوف يرضى بما سبق له أن قام برفضه.

وبعد أن قامت الممرضة بعملها أحس لوقا أنها أضاعت ما كانت تبذله من حيوية عندما ارتخت يديها وفقدت حماستها السابقة في فرك جسمه؛ إذ إن يديها أصبحتا مترددتين كما لو كانتا تريدان ملاعبته وملاطفته، وبنفس الوقت كانتا تشعران بعدم جدوى تلك المداعبة.

كانت يداها تقومان بتنشيف جميع أجزاء جسده، وظهر له بوضوح أن تلك السيدة كانت متمرسة على هذا العمل، وأنها تقوم بغارة سريعة يجعلها الندم والسرعة وتبكيت الضمير خشنة وخرقاء تنقصها الحذاقة.

لقد كانت هذه الغزوات والهجمات المتكررة، وطبيعة المرأة؛ تجعلان الإنسان يفكر -لكون هذه الغزوات مبهمة وجشعة- بنقرات العصفور الخائفة، وبالتالي فإن الممرضة قد أوحت الآن بشكل واضح لا شك فيه بطبيعة الشعور الذي جعلها قلقة مضطربة الخاطر بعد أن أصبح وجهها كالجمر وهي تحني رأسها، كأنها تريد إخفاء عينيها.

وعندما حدق بها لوقا بدا له بأنها تزداد حمرة بالتدريج، كلما اقتربت يدها من جسده، وخلافًا لما جرى قبل ذلك مع المربية لم يشعر لوقا الآن بأي رغبة في التسلل والهرب من هذه المداعبات.. لقد بدا عليه بأنه أصبح لعبة بين يدي هذه المرأة، وقد فقد كل إرادة تجاه إرادتها سوى أن يكون هادئًا ومطيعًا.

وأعلنت الممرضة:

- لقد انتهى حمامك اليوم.. يمكنك أن تلبس ثيابك.

في الماضي كان من المستحيل أن يقبل بهذه السهولة والبساطة -بدون نفور، أو بعض الغرور في نفس الوقت- اضطرابًا كهذا من اضطرابات جسده. لقد صدف أنه شعر بثورة عارمة إبان أول اندفاعة كانت تحاربه وتسعى للسيطرة عليه، أما الآن فسواء كان الموضوع يتعلق به أو يتعلق بالممرضة، سواء أكان يتعلق برغبته هو، أو يتعلق برغبتها هي، رغم أفعالها غير المنتظرة وتملصها من كل مراقبة يقوم بها، ورغم كل ذلك بدا له الاضطراب مقبولاً لعدة أوجه، ولحقيقة محببة كليًّا ومفهومة كليًّا.

كان شارد الفكر أخذت الدهشة بمجاميع لبه، عندما رجف واهتز بدنه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه على أثر سماعه كلمات الممرضة التي كانت تقول له مكررة:

- إذًا هل ستقوم بارتداء ملابسك؟

وبصمت وهدوء سمح لها أن تدثر جسمه بثياب النوم، وتلبسه البيجاما وتلفه مجددًا في الروب دي شامبر.

وسألته وهي تفتح له الباب:

- كيف تشعر الآن؟

- ورد قائلاً:

- جيدًا.

وغادر الحمام وسار إلى غرفته وقال أثناءها:

- إنني أشعر بالضعف والدوار.

وألقى بجسده بين يدي الممرضة ليجد نفسه جالسًا في سريره، وقد ملك عليه إحساس أشعره بأنه يفيق من إغماءة مؤلمة.

وقالت له الممرضة وهي تنضح جبينه بقطعة من القماش الرطب:

- لا تخف فليس هنالك ثمة شيء يؤلمك.. إن الحمام يضعف الجسم دائمًا.

ولم يجب لوقا عليها.. أما الممرضة فبعد أن رفعت عنه الروب دي شامبر كشفت الأغطية وساعدته ليدخل ساقيه تحت اللحاف، ومنذ لمس نعومة الأغطية النظيفة شعر بلذة كان الفضل فيها لهذه المرأة التي ساعدته.. وقالت له:

- حاول أن تنام الآن...

وبالفعل تركته وأغلقت الباب عليه وتركته وحيدًا...

الفصل الرابع عشر

وفي خلال الأيام التالية لتلك الحادثة في الحمام لم تشر الممرضة لهـا مـن قريب أو بعيد، كما أن لوقا لم يشر إليها، ولم يحاول أن يتذكرها، ولم يكن ذلك لأن تلك الحادثة لـم تكن تجد هوى من نفسه، أو لأنه لم يجد الفرصة المناسبة لتجديد تلـك المناوشـات الأولـى وتتابعها؛ بل لأنه كان يشعر على ما يبدو باستعداد تام للخضوع بصورة سـلبية لإرادة تلـك المرأة، مهما كان نوع تلك الإرادة، شرط أن تسمح له بممارسة إرادته الشخصية الحرة.

وبالتالي كان يكفيه تفهم معنى تلك التجربة، دون أن يهتم فيما إذا فشلت هذه التجربـة في بدايتها أو تكللت بالنجاح، أما وقد تأكد لديه أن الممرضة ما زالت تفكر بـه فـي جميـع الأوقات، وتعيش على ذكرى واقعة الحمام؛ آثر أن ينتظر بفضوليته الملحة نتيجة تفكيرها.

وإذا ما حاول فيما بعد أن يحدد موقفه وأن يعرف إحساساته الذاتية؛ لأمكنه أن يلاحظ بأنه بالإضافة إلى الانجذاب المبهم –رغم كونه قويًّا كالذي يمكنه أن يشعر به تجاه أي امـرأة كانت– فبإمكانه أن يداوم على تغذية شعور المودة للممرضة؛ ذلك الشعور المدرك المتجـرد الذي أصبح يحس به ويكنه لكل الناس ولكل الأشياء.

هذا الموقف في الحالة الحاضرة كان يعلن عن وجوده بفضولية قليلة.. ومع ذلك فهي صادقة؛ لطبع هذه المرأة ولأجل ماضيها، فبالإضافة لاعتنائها به، تقوم بقضاء الوقـت معـه ومسامرته؛ مما وطد الصداقة بينهما، وجعلهما خلين حميمين، وعندها بدأت تخبـره وتطلعـه على تفاصيل حياتها وعن الأشياء الكثيرة التي صادفتها في هذه الحياة، والعلاقـات الغراميـة التي ارتبطت بها، وكيف قضت الكثير من أوقاتها مع تلك الحياة الطبيـة الرحيمـة لمختلـف الناس والطبقات.

وصدق حس لوقا؛ فلقد كانت كما تصورها تنعم بحياة رغيدة في شبابها.. ولما كـان عليها أن تعيش بعد أن توفي زوجها زاولت عدة مهن، كانت آخرها مهنة التمريض.

كانت في بداية أحاديثها مترددة، تخفي بعض أقوالها، ولكنهـا عنـدما رأت أن لوقـا لا يظهر أي دهشة انطلقت تحكي له لا تخفي عنه شيئًا، بل تحدثت معه بمنتهـى الـصراحة، وتوصلت بالنهاية إلى الحديث معه بصورة جلية لا حياء فيها، ولكنها صورة خاشعة ومتـأثرة هدفها الوصول إلى القلب الحنون.

كان جزء من حياتها –كحياة معظم النساء– حياة مليئة بالغرور والأخطاء، وكانت هي بدورها كأي شخص عادي يعيش على هامش المجتمع، الذي حكم عليـه بمـا يحكـم علـى الأشخاص المنحطين بصرف النظر عن وصفهم وتحري الحقائق عن حياتهم.

ولكن هذه الأخطاء وهذا الغرور لم تبد للوقا مع مظهرها الشفوق الجديد معذورة فقط؛ بل وجدها محببة إلى النفس، يعجبه منها بصورة خاصة التلميح الذي كانت تستعمله المرأة مدعية أنها ما زالت جميلة وفتية.

وهي لو لمحت إليه عن الماضي لبدا له مضحكًا يستوجب السخرية. أما الآن فكان يبدو على العكس خطًّا عنيفًا من طبعها وهي تتحدث عن الجمال النسائي، بينما كانت تسير في الغرفة جيئة وذهابًا، وقد أنزلت قميصها على جسدها؛ مما أضفى عليها مسحة من الوقار الجميل.

وقالت له:

- انظر إليَّ فرغم همومي وأعبائي الكثيرة إلا أنه كم من النساء ما زلن يحتفظن بجمالهن مثلي؟.

وراحت عيناها تلمعان ويداها تسيران على جسدها وهي ترفع رأسها بشموخ. ولم يتمالك لوقا نفسه من الابتسام، ولكنه سرعان ما تراءى له أن هذه الابتسامة كانت ابتسامة عطف وميل نحو تلك الممرضة الجميلة.

في هذه الآونة كان لوقا قد شفي تمامًا من مرضه، وكان يمكنه أن يذهب إلى الحمام وأن يأخذ حمامه بمفرده دون أن تساعده الممرضة، رغم أنها قامت بمساعدته في أحد المرات، ولكن دون أن يحدث اضطراب كالمرة الأولى، ودون أن تتعمد الممرضة أن تقوم بنفس ما قامت به أول الأمر.

لقد بدا عليها أنها تخلت عن التحرش بلوقا، وهذا لا يعني أنها زهدت ذلك أو أن زهدها كان خاليًا من الزهد والأسف والكآبة، كما لو كانت قد وجدت في التضحية برغبتها بعض أسباب العشق الجديدة، رغم أنها لا تزال حزينة وكاسفة البال. وقد لاحظ لوقا ذلك وفهم كنهه يوم كان ممدًا في سريره، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة متظاهرًا بالنوم؛ إذ رآها تنظر إليه طويلاً، وتتأمله بملامح شاذة لم يدرك معناها في تلك اللحظة.

لقد كانت نظراتها قلقة حائرة تكاد تكون مشوبة بالاحتقار، كما لو كانت تحاول أن تعرف من وجهه سبب رفضه لها، دون أن تحاول إدراك هذا من ضميرها، ولما لم تجد السبب المقنع لم تكن لديها الشجاعة الكافية لتتخلص من وساوسها وتتمتع به كما اشتهت وأرادت.

وفي إحدى الأمسيات وبعد أن أحضرت له صينية العشاء قالت له وهي تجلس على سريره:

- أعتقد أن هذا هو اليوم الأخير لي هنا.

فرفع لوقا بصره إليها وقال لها بلهجة ماكرة:

- إني آسف لسماع ذلك.. ومتى سترحلين؟

أجابت الممرضة:

- غدًا.

ثم قالت وهي تنظر إليه بنظرة ثاقبة:

- أنا أيضًا آسفة.

وتطلع إليها لوقا فرآها جالسة على السرير في وضع غير مريح نسبيًّا وقد أدارت وجهها نحوه واتكأت بيدها على الأغطية، ولاحظ لوقا بأن تحت الأصباغ التي تلون وجهها كان يوجد احمرار آخر أكثر حرارة بوجهها؛ احمرار يشبه احمرار الاضطراب والقلق الذي صبغ وجهها يوم حادثة الحمام، وكانت عيناها تلمعان بإصرار.

وأضافت الممرضة:

- لقد أصبحت مولعة بك إلى درجة كبيرة.

فلم يجبها لوقا إلى ذلك.

وأكملت حديثها قائلة:

- من المعقول أن أكون قد أحببتك بعض الشيء...

وكان لوقا قد حسب لقاء تلك الكلمات إلا كلمات الحب، إنه لم يكن ينتظر سماع ذلك بهذه الطريقة منها، إن الحب لا يكون بهذه الطريقة من الإعلان؛ لأن تجربة الحب الوحيدة التي قام بها تنحصر بتلك العلاقات الخاطفة القصيرة مع تلك الممرضة، التي كان يتصورها وهي تبادر إلى القيام بالخطوات الأولى؛ حيث تفرض نفسها عليه بدون أن يتكلم أو يحاول الاعتراض مكتفيًا بدوره السلبي لتقضي منه ما تريد.

أما وقد فاتحته بطبيعة حبها العاطفي الذي اعتقده حتى تلك اللحظة غرامًا داعرًا يميل إلى الشهوات؛ فقد جعله هذا يضيع بعض الوقت في حيرة جامدة ومفاجئة.

وسألها لوقا بصوت مفعم بالكآبة:

- هل صحيح ما تقولين؟

فأجابت الممرضة بقولها:

- نعم... ولكن إن ذلك ليس بذي أهمية.

ثم هزت رأسها وأخفضت عينيها وصدر عنها صوت آهة حزن، وحاولت أن تمنع من عينيها تلك الدموع التي كانت تنحدر وتسيل على خديها.

فقال لها لوقا:

- أنا أيضًا أعتقد أنني أحببتك.. ولكن ذلك مرجعه إليك في أول لقاء..

ولم يكمل كلامه بل نظر إلى الممرضة، وراح يمعن التفكير في ذلك الكلام الذي قاله، والكلام الذي قالته، وعرف أن فيه بعض الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، ولكن من أين واتته هذه الثقة التي خلت من المكر، كأنها نابعة من قلب عاشق متيم؟ إنه كان سعيدًا بتلك الثقة وكان مسرورًا بها؛ إذ اعتبرها قدرة جديدة تضاف للتعرف والاتصال بالغير.

وعندما رفعت الممرضة عينيها إليه سألته:

- وهكذا لو شئت؟

فأومأ لها لوقا برأسه موافقًا على ما ستقوله.

لقد اعتقد أن هذه المرأة ستندفع فورًا وتلقي بنفسها عليه؛ ومن ثم فقد استجمع قواه واستعد لتلقيها بين ذراعيه كما فعلت يوم أن كانا بالحمام.. ولكنه في هذه المرة في قوة وعزم صريحين، وبدون أن يتخلل حركاته أقل أثر من آثار الرياء أو المداهنة سأل عما ستكون عليه تصرفاتها ومسلكها.

في تلك الأثناء كان والديه يتناولان طعام عشاءهما، ولن يحضرا إليه قبل أن تنقضي على الأقل فترة نصف ساعة، ولكن هل هذه المدة القصيرة من الوقت كانت كافية لكي يتحابا فيها؟ ثم إنه المعقول أن تفاجئهما والدته أو والده.

لقد خاف لوقا من الحب في مثل هذا الوقت غير المناسب على الإطلاق؛ ولذلك اكتفى بأن قال:

- ذلك اليوم في الحمام... أعتقد أنك كنت تريدين.. فلقد كان المنزل خاليًا ليس فيه أحد سوانا.. أليس كذلك؟

ورغم جميع ما كان ينتظره وما كان يتوهم أن يحدث فإن الممرضة لم تجب على تساؤلاته؛ بل أنها قامت من السرير ونظرت إليه عن بعد، بعد أن مدت ذراعها ولمست خده ودغدغت وجهه وقالت:

- في ذلك اليوم كنت مريضًا.. وضعيفًا...

فكر لوقا بأن كلامها صحيحًا؛ ولذلك لم يقل لها شيئًا؛ بل اكتفى بأن هز رأسه موافقًا.

وقالت له بحنان:

- إذا جئت إليك الليلة فهل تكون مسرورًا؟

رفع لوقا عينيه وقال لها:

- بكل تأكيد..

فسددت إليه نظرة من نظراتها الثاقبة المستقيمة.. وبدون حراك غمرته بعينيها اللامعتين الفتيتين والمختلفتين اختلافًا كبيرًا عن العيون القديمة الباردة المحروقة الجفون من كثرة استعمال الكحل.. ثم وبنبرة سريعة الوعد قالت:

- إذًا.. إذا كان يسرك ذلك بالفعل.. فسأحضر إليك الليلة... فأومأ لها لوقا برأسه موافقًا.

واستطردت تقول:

- سأحضر... ولكن يجب أن تنتبه جيدًا.. يجب ألا تصدر صوتًا.

وبما أن الممرضة لم تعد منذ مدة طويلة تنام خلف الحاجز الذي في حجرة لوقا؛ فقد فكر بأن هذه الوصية كانت تبديها لنفسها وتحتاج إليها أكثر منه.

وأردفت تقول:

- إلى اللقاء بعد ساعتين يا عزيزي.

ثم تطلعت إليه خلال لحظة أخرى كأنها تريد أن ترى ذلك التأثير الذي يخلفه وعدها إليه بملاقاته؛ ومن ثم تناولت الصينية وانصرفت.

وبعد أن ظل لوقا قرابة الساعة بمفرده أمسك قصة غرامية وأخذ في قراءتها، ولكنه لم يقرأ إلا قليلاً حتى أحس بحرقة خديه كما لو كانت عينا الممرضة المتوهجتين بالرغبة المحمومة قد أحرقتا وجنتيه بنظراتهما الثاقبتين، بالإضافة إلى أنه لم يكن يفهم مما يقرأه شيئًا.

كانت هذه الحرقة اللذيذة تشتعل وتضطرم بشعور من الحيوية العميقة الغور، التي لم يشعر بمثلها طيلة حياته، ولكي يشغل نفسه عن هذا الخاطر المتأجج الممزوج بالاضطراب بدأ يفكر بالمسلك الخاص به تجاه الممرضة والموافقة التي أبداها؛ شعر أنه لم يكن بمقدوره أن يكون أكثر لباقة وإخلاصًا صادقًا مما كان عليه حينذاك.

لقد قالت له بأنها تحبه، أما هو فقد اكتفى بأن يقول لها إنه مسرور من حضورها، وقد كان ذلك حقيقة لا مراء فيها، وفكر بأن مجيء هذه المرأة سيجعله مسرورًا. كما كان يشعر منذ أفاق من هذيانه من أن جميع الحوادث التي تراءت له، وجميع العلاقات الإنسانية تجعله يحس بسعادة؛ لعدم شعوره نحو الممرضة بشعور أبشع وأقوى، يختلف اختلافًا كليًّا عن الشعور الذي كان يستوحيه من بقية الناس والأشياء.

وفي الحقيقة كان يشعر بجوع نحو هذه المرأة، وهذا الجوع كان يجعلها مرغوبة، ولكن جوعه لها كان من نوع الجوع الذي يحس به تجاه الضوء الهادئ الذي ينبعث من ضوء المصباح الموجودة على طاولة مكتبه، نفس الجوع الذي يشعر به تجاه الأثاث الموجود في الظلام، نفس الجوع الذي يحس به تجاه الليل، تجاه الصمت المطبق في الخارج والمهيمن على بيته، وحتى نفس الجوع الذي يشعر به تجاه الصرير الخافت الذي يصدر من سوسة الخشب التي تقرض الخشب وتحفر لها ثقبًا عموديًّا في الطاولة.. جميع هذه الأشياء كانت محببة لنفسه على مستوى واحد لأنها تبعث في نفسه دافع الرضى والرغبة في التمتع بها، وهي بمجموعها تؤلف عالمًا خاصًا بدا له في النهاية جديدًا ومقبولاً.

وبدا النعاس يداعب جفونه، بينما هذه الأفكار كانت تهز مشاعره مستولية على مجامع عقله الباطن بين مد وجزر، وخلال غفوته المتأججة بين اليقظة والاستسلام للرقاد؛ قدم والداه لرؤيته حسب ما تعوداه منذ أن مرض، وبعد أن قدما له النصح والإرشادات واستفسرا عن صحته بينما كان هو يجيب عليهما بكلمات مبتورة غامضة؛ غادرا غرفته.

لقد نام لمدة طويلة نومًا عميقًا، ولقد أفصح نهمه عن واقعه وما يشعر به من جوع ورغبة في الأشياء والأشخاص معًا، وتحت تأثير جوعه النهم وبإيحاء منه حلم حلمًا غريبًا وفريدًا من نوعه؛ إذ تصور نفسه قد تجسد على شكل شجرة عارية سوداء، تقطر بما تبللت به من هطول المطر عليها، وقد مد يديه التي هي بدورها فرعا الشجرة الباسقة، أما أصابعه فلم تكن سوى أفنان دقيقة تمتد ظلالها فوق تلة جرداء قائمة جمدها الجليد، بينما هو يرتعد من وحشة السكون ولاذع الصقيع، وقد احتاطت بها من جميع الجهات بقعة شاسعة المدى، تناثرت بها التلال، واكتست بالأشجار الباسقة والأحراش الكثيفة، وجرت فيها الأنهار؛ كل هذه الأراضي كانت مغطاة بالثلوج وقد سترها ضباب الشتاء الكثيف، فالسماء المقفلة بالغيوم الثابتة القاتمة تعكس صورتها في الحقول، والغرفة في خضم صمت عميق أشبه ما يكون بصمت الفناء، بينما ظهرت الشمس تخطر في الأفق البعيد، وفي البدء لم تكن سوى كرة حمراء باردة وفي خلال صعودها إلى كبد السماء كانت الغيوم تتلاشى تدريجيًّا لتصبح السماء صافية مشعة، ولقد أحس بدفء حرارتها رغم أن قشرتها سميكة متجمدة.

وعلى أثر انتشار أشعة الشمس سرت حركة واسعة في جميع أنحاء الأرجاء، كما لو كانت كل شجرة من تلك الغابة قد اهتزت في سكونها الشتائي، وبدت الأنهار كما لو أنها طفحت والحقول قد نبتت، والتلال قد ترطبت وملئت بالأخلاط المائية.

وبغتة انتشر في الجو صوت حاد هائج بعيد المدى، صوت عاشق أشبه ما يكون ببواق الصيد المخترق لحجب الصمت البارد، ولقد أحس بالجوع والنهم الشديد اللذيذ يسري من

جذوره المغروسة بعيدًا في الأرض صاعدًا إلى ساقه؛ ومن ثم يمتد من القشرة المتصلبة إلى فروعه وأغصانه التي تفتحت على أثر الماء برعمًا برعمًا، واخضرت الشجرة لاسيما بعد أن تفتحت البراعم لتصبح أوراقًا وفروعًا وأغصانًا مزهرة.

ولتوه فقد شعر بأن جسده مثل جذع الشجرة بدأ ينمو ويكبر ويتناسل بدون توقف بوثبة عنيفة لا تقاوم، وبغتة فقد تحول على حين غرة إلى إنسان واقف وقد امتدت يداه صوب الشمس.

وأفاق من نومه وشعور التوثب والتكاثر في الأعضاء ما زال مسيطرًا على مشاعره سيطرة تامة.. لقد كانت غرفته غارقة في الظلام، باستثناء نور باهت صادر عن المصباح الموضوع فوق الطاولة قرب السرير ليس ببعيد عن وسادته، منتشرًا من خلال فتحة الغطاء الأحمر، ولقد سجلت الساعة الواقعة في دائرة الضوء الباهت الثانية عشر إلا ربعًا.. وما هي لحظات حتى تأتيه الممرضة في الموعد المضروب بينهما.

حينئذٍ تطلع إلى الغرفة الغارقة في الظلام الدامس مفكرًا بالممرضة، وبدا له أن جوعه في وثبة فقدان البصر والتعطش إلى الحب فاق بدفعة واحدة الوقت الحاضر والحدود للمكان الذي كان فيه مندفعًا عبر المستقبل وما يكتنفه من غموض.

في هذا الظلام الدامس بدا له أن الحياة التي سيعيشها قد تجلت أمام عينيه، وبان له ما بقي من هذا الواقع الحياتي: الأمكنة، الأوجه، الحركات، واللقاءات؛ كان ذلك شعورًا مقلقًا مشوشًا لحرية باغية ظالمة، بل في بحث وتنقيب لا حدود لهما لواقع ساطع متلألئ، واقع المستقبل الذي يخترق كان المستقبل وهو في شمس خياله، والذي استعرضه في طرفه عين في أدق تفاصيله.

لقد فكر بأن الحياة تكمن هناك، وما عليه إلا أن ينتظر متصبرًا للقاء لينعم بالحياة الحقيقية، إلا أن عيناه اغرورقت بالدموع سخية وانتابته قشعريرة سرت في أوصاله وهزت بدنه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبدأ يردد بصوت مرتفع أقوالاً لا معنى لها. وهو يتقلب على سريره يمينًا وشمالا، علّه يهتدي إلى قبس من نور ضئيل يتسرب من هيكل المستقبل؛ ذلك المستقبل الذي راح يمزق حجبه بعينيه المغلقتين بوشاح الظلام الدامس، وفيما هو يقلب هذه الأفكار بعقله وقد وصل إلى قمة الهياج النفسي سمع الباب يفتح.

كانت الممرضة قد فتحت الباب ودخلت إلى الغرفة، وهي ترتدي قميصًا طويلاً من القماش الرقيق، وقد تدثرت فوقه بمعطف من الفرو يشير إلى أنها قد ألقته فوق كتفيها بعجلة زائدة، ورآها لوقا بعينين اعتادتا أن تبصرا في الظلام المطبق، فأشارت له بوضع إصبعها

فوق شفتيها وهي تطلب منه أن يلتزم الصمت. بينما كانت عيناها تقدحان ببريق غريب أضاء كامل وجهها رغم العتمة المسيطرة على المكان.

ولم تلبث أن أغلقت باب الغرفة بحذر شديد، وأحكمت وضع المزلاج عليه، ثم تناولت فوطة من فوق الطاولة ولفتها حول المصباح، وهي تعمل بسرعة ودقة يظهر مـــن حركاتهـــا بأنها قد قامت بهذا العمل في حياتها أكثر من مـــرة، ولوقـــا ينظـــر إليهـــا بـــدون ارتبـــاك أو اضطراب، ورأسه لا يزال على الوسادة ويداه ممدودتان على السرير دون أن يـــأتي بـــأي حركة؛ بل اكتفى بمتابعة حركاتها بفضول شديد، وهو يشعر أن هذا الفضول الشديد كان بريئًا، وأن حركات الممرضة تشبه إلى حد بعيد حركات مجموعة من الممثلين المحترفين المـــدربين جيدًا.

ولما انتهت من الترتيبات اللازمة اقتربت من السرير ووقفت تنظر بثبات إليه وتتطلع إليه بعينيها اللامعتين، ثم رفعت عن كتفيها المعطف ووضعته على الكرسي بهدوء.

وانحنت، وهي تضع ذلك المعطف لكي يرى لوقا جسدها ويتأملـــه، وأخيـــرًا خلعـــت قميصها، وفكر لوقا وقال في نفسه إنها تقوم بدورها كما لو كانت ما تزال فتية، وهذا ما جعله يسر. وعندما بدا لها أن لوقا قد تمتع من مرآها على هذه الصورة اندست إلى جواره وتمددت بجانبه.

وعند ذلك امتلك شعور الغريق أنفاسه، وأيقن أنه في بحر من اللذة التـــي لا يعـــرف معناها، ونظر إليها فوجدها في إغماءة كأنها تمثال بارد.

وعندما سرت في جسده تلك الرعشة كان شعور الترويح عن النفس كـــان ولا يـــزال مستمرًا ومهيئًا لإعادة هذه المعانقة المتأججة بطراوة ولذة محببتين.

الفصل الخامس عشر

في صباح اليوم التالي غادرت الممرضة البيت بعد أن تم شفاء لوقا كلية، وذلك حسب ما أخبرت به لوقا قبل أن يجتمعا معًا في ليلة من ليالي المتعة المحرمة، ولم يترك رحيلها أسفًا لدى لوقا أو قرفًا لديه؛ بل ترك شعور الشكر للمبادهة النهائية؛ ليس تجاه الحب الطبيعي فقط، بل بصورة عامة تجاه الأشياء التي مكنته من هذا الحب الذي أضاء لعينيه السبيل عندما أفاق من هذيانه.

لقد بدا له أنه اكتشف في النهاية وسيلة جديدة لرؤية الحقيقة، وسيلة خلقت من العطف ومن صبر الانتظار وسيلة تبين له بأنها تحتوي على لحن من الأفكار أكثر هدوءًا وأوسع مدى، بصفاء أرق مما كان عليه في الماضي، مع نظرة ليست بالثابتة والمعتدلة، كما كانت في السابق؛ بل مترددة بعناء يفوق الوصف.

وراح يفكر في سره بأنه من الآن وصاعدًا سيرى الأشياء بعين البصيرة الجديدة التي تفتحت لديه في هذه الآونة، والتي وجدت معه منذ ولادته.. ومنذ أن تفتحت عيناه على النور.

لقد ولدته الممرضة مرة ثانية كما ولدته أمه بصورة طبق الأصل، وفتحت أمامه مجال العيش والحياة بعد أن ماتت لديه الرغبة في الحياة، عندما كانت نفسه تدفعه إلى الموت، وكان يفهم بأن هذه الولادة الثانية لم تكن لترى النور لولا أنه اشتهى الموت في السابق بصدق وعزم يفوقان الوصف.

ومع ذلك فإن الحديث عن سفره إلى الجبل كان يتضخم تدريجيًّا، فبعد أن كان تلميحًا أصبح رغبة، ثم صار لزومًا عندما استأجر والده غرفة له في أحد المصحات للنقاهة، ولم يبق عليه إلا تحديد موعد السفر. ولم يكن الحديث يتطرق إلى دروسه فقد أصبحت منسية، أو أن هناك اتفاقًا جرى على تناسيها إلى وقت بعيد يغدو فيه لوقا قويًّا وقادرًا على مجابهة الدراسة من جديد دون أن يكون ذلك خطرًا على حياته.

وفي غمرة الاستعداد للرحيل كان لوقا يجلس وهو مدثر بالأغطية يمتع نظره بالسماء الصافية التي كانت تتلألأ مع إطالة الربيع الدافئ..

كانت السلبية تعجبه، ولاسيما وقد علم الآن وجود نظام في الأشياء ما زال مجهولاً من قبله، ووجد قوة شديدة تدفعه بعد أن أصبح سعيدًا للانضمام إلى ذلك النظام، رغم طبعه الغريب الخفي.

وجاء يوم الرحيل، ورغم أن نسيم الصيف كان قد أصبح حارًّا، إلا أن أمه التي وجب عليها أن ترافقه إلى المصحة أصرت على أن تلبسه الثياب الثقيلة مع معطف سميك، فشعر لوقا أنه أصبح مقيدًا لا يستطيع الإتيان بحركة، بعد أن لفته بالمعطف وتركته لا يستطيع الحراك، وهو قابع في مقعده وسط هذه الغرفة التي تعج بأمتعته إيذانًا بالرحيل.

في تلك اللحظة التي وجب عليه فيها أن يشعر على الأقل بالاتجاه الذي طبعه الآخرون على حياته؛ كانت سلبيته تصر على المداومة والثبات، وتطول فتجعله بلا حراك، مع أن السكون كان بحد ذاته يبدو غير مسكن على الإطلاق.

سمع في الشقة الأصوات الصادرة عن أهله بينما الخدم تنقل الحقائب، ورغم ذلك ظل بلا حراك كما لو أنه لم يكن مزمعًا على السفر؛ كأنه يشعر بحرارة كبيرة قد تكون مزعجة وقد تكون ممتعة، وهو ينظر إلى السماء الشاحبة لهذا الصباح، فلو أغلق إحدى عينيه لتراءى له في زجاج النافذة لطع له هيئة دمعة يتوسع في السماء ليصبح نوعًا من الشفق الأبيض الكبير.

وأخيرًا سمع والدته تصرخ وهي تدخل عليه لاهثة:

- ماذا تفعل هنا؟ إن السيارة بالانتظار بالخارج؟

عند ذلك واتته القوة الدافعة التي أهابت به أن يتحرك، وهو يعلم أن الأمر لو كان متعلق بسفرات أخرى لأمكنه الهرب منها ويهزأ بتحركات السفر المضحكة.

ولكنه في هذه المرة تبين له بأن الرحيل إلى الجبل كان ليس ذا أهمية عنده، كان ذهابه أو امتناعه سيان لديه، فسواء وصل أو لم يصل؛ هناك مزيد من القطارات، وعلى كل كان بإمكانه البقاء بالبيت، وبينما والدته تلهث وتركض نحو مقصورة بيع التذاكر لتأخذ بطاقات السفر وتسجل عليها رقم القطار وتاريخ السفر؛ ترك لوقا أفكاره تغرق في لحظة من الجمود المحبب الذي اعتاد عليه.

وكاد أن ينبس وهو جالس على حقيبته تحت سقف المحطة المقبب الذي يبدو كأنه مطلي باللون الأسود اللامع أنه مزمع على السفر. ورغم تحركات الناس حوله وصراخهم وهم يسيرون جيئة وذهابًا، فإن مشاركته للحياة الخارجية كانت تنقطع بصورة مستمرة كأنها شريط رفيع جدًّا، ولم يحاول أن يربطه أو يتعب نفسه لإجراء ذلك.

ومن هذه العلاقات المتآلفة وجود أمه هناك في المحطة بينما لم تزل سيارة الأجرة التي أقلتهم واقعة في مكانها، أما مساق الحوادث في تلك الفترة الزمنية فقد كانت تمكنه من الانطلاق على سجيته بالتقاعس والاسترخاء؛ فالقطار والعلاقات الأخرى كانت جميعها تسمح له بتحقيق ذلك.

ولم يتمكن لوقا بالرغم من سلبيته وعدم حركته من الانقطاع عن التفكير بأن هذا القطار هو نفس القطار الذي تقيأ عليه منذ أشهر مضت، يوم أن عاد من عطلته المدرسية، وراودته هذه الفكرة وهو يلحق بالحمال الذي حمل حقائبهم إلى القطار، فتذكر أن هذا القيء كان نتيجة لثورة غضبى اضطرمت بها جميع أعضاء جسمه النحيل.

وما إن أصبح داخل القطار حتى شعر بالنعاس يراود أجفانه، رغم إمساكه برزمة الجرائد والمجلات التي اشترتها له والدته لكي يقطع بها طول الطريق؛ ومن ثم أحس بأن العجلات بدأت تدور تحت جسده وهو لا يزال مستمرًا في نعاسه واستسلامه لجبروت النوم.

ولما فتح عينيه المغلقتين كان ذلك لرؤية بيوت الضاحية التي ظهرت وراء نافذة القطار على مرمى البصر، وقد كان بإمكان المرء أن يشاهد خلال النوافذ الأبنية التي يسير القطار بمحاذاتها، ويرى ساكني تلك الأبنية وقد أفاقوا من نومهم وهم يتنقلون بين الأسرة التي لم يجر ترتيبها بعد.

صفّر القطار عدة صفارات طويلة غير متقطعة وبدأ بعد ذلك بالسير حثيثًا وهو يزيد في سرعته تدريجيًا، بينما أصبحت البيوت تتلاشى شيئًا فشيئًا، وبعد أن مر القطار على جسر حديدي بأسرع ما يمكن وهو يطلق الضجيج والضوضاء التي تصم الآذان؛ بدأت طلائع الريف تبدو للعيان.

كان القطار يسير بأقصى سرعته، وهذه السرعة بدت للوقا أنها تحتوي تباينًا لذيذًا لعدم الحركة التي اختص بها، ولم يكن القطار بالنسبة له سوى شيء له وجهة وهدف وإرادة، كعشق الممرضة له في السابق، وكما كان تحريض أهله له، بل وإغراؤه ليعيش.

وفجأة خامره شعور الاستحسان لأن ينحو طيلة حياته هذا النحو، ينتهج مسلكه الموسوم بقوة خفية وواسعة الانتشار، تشد إليه القطار وأهله والممرضة، ولما لم يستطع إلا أن يستسلم لهذه القوى الخفية بثقة عمياء وبلذة عميقة؛ رأى نفسه جنديًا يلبس الزي العسكري في جيش يجهل أسماء قواده، ويجهل طبيعة الحرب التي رمته بالجوع والجراح؛ فأصبح شحاذًا يفترسه الفقر المدقع، أو غنيًا يملك ثروة كبيرة، ولكنه لا يستفيد منها بقرش واحد، أو أصبح كبيرًا على رأس سلطة لم يجد ويسعى في طلبها، وبعد كل ذلك لا يستفيد من حياته شيئًا، وهو يستسلم للموت.. يا لعذوبة نتيجة حادثة لم تكن منتظرة ولم يحاول التهرب منها.

وكان يزكو نغمة أفكاره ويغذيها ضجيج القطار وهو يمر فوق وصلات القضبان الحديدية ودقات الدواليب السريعة المنتظمة، وصفير القطار الذي يمزق هدوء الريف المتوازي خلف ظهره، والذي يراه في هروبه من خلال زجاج النافذة.

نعم لقد دخل الآن في وسط دوامة قوية كبيرة ومدوخة، ولم يكن بداخلها سوى قشة لا تقدر على منعه من سحبها، أملها الوحيد هو أن تتمكن من البقاء سابحة حتى النهاية، واستسلم لها بثقة مغمض العينين كما استسلم منذ بضعة أيام خلت لمعانقة الممرضة ومضاجعتها.

لقد انتهى بإغماض عينيه فعلاً لكي يتمكن من التفكير بطريقة أجدى في هذه الفكرة.. أما والدته الممتلئة بحب الاعتناء به فقد وضعت تحت رأسه وسادة صغيرة معتقدة بأنه يرغب بالاستسلام للنوم.

وحتى ذلك الوقت لم يفكر بالممرضة إلا بصورة مبهمة بالنسبة لهذه المبادرة التي اشترك فيها، والتي لم يكن خلالها سوى آلة لا شعور فيها عندما قام بها، وظلت هذه الفكرة تلازمه من وقت الظهر حتى العشاء عندما كانت تنزل سرائر النوم الصغيرة حيث قاموا بترتيبها، كانت لا تزال مسيطرة على فكره حتى بعد أن ارتمى على السرير ولفترة طويلة من الليل عندما داهمة سلطان النوم وسطا على أجفانه.

وخلال رقاده كان القطار قد دخل لاجتياز جسر حديدي طويل يصب فوق نهر كبير، وبدا للفتى –عند سماع ضوضاء العوارض التي تحمل الكوبري وهي ترتج لمرور قافلة عربات القطار وتتابعها لمدة وجيزة، وهو يسمع أنين الأصوات الصاخبة ودندنة جلبة الخطوات الداوية– بأن القطار قد دخل ووقف في محطة كبيرة، ولكن الليل كان لا يزال حالكًا. وبعد أن تقلب إلى جهته الثانية عاد إلى النوم ثانية، ولم يسمع تحركات القطار الذي كان يقوم بتغيير القاطرة كما لم يشعر بسيره من جديد.

كان لا يزال يغط في نومه ويفيق من وقت إلى آخر وهو يشعر بنفس اللذة، ومن أن القطار لا يزال يتابع سيره، وعندما أفاق نهائيًّا كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، ثم لدى سماعه دقات القطار البطيئة وأنين العجلات فهم بأن القطار كان يقصد تلاًّ مرتفعًا.

وساعدته والدته على ارتداء ملابسه ثم اغتساله، وجاء مراقب القطار وأعاد الأسرة إلى مكانها، وأخيرًا جلس لوقا قرب النافذة وتطلع إلى المناظر التي يمر بها القطار، الذي كان في تلك الأثناء يسير بسرعة وهو يدور حول الجبل على طول خانق خطر وضيق يُرى في أسفله سيل يهدر هديرًا صاخبًا.

وفي الجانب الآخر من السيل كان هناك جبل آخر متعرج ينتصب بهيبة نحو السماء، وتطلع لوقا إلى مياه السيل المزبدة وإلى الصخور التائهة التي كانت تلك المياه تدور حولها وتثب فوق قسم منها تتكسر وتتلاشى، وأجال ببصره في غابات الصنوبر الكثيفة التي ترتفع تدريجيًّا من أسفل الجبل إلى أعلاه كأنها طوابق.

وكانت المناطق السفلي من هذه الغابة تحاذي أمواج المياه الصاخبة، ويمتد جذور أشجارها عبر السيل فتشكل منظرًا شاعريًّا عندما يتطلع المرء إلى تلك الصخور البرونزية اللون، إبان ضوء المصباح الأصفر الباهت.. أما أشجار الصنوبر فلقد كان لونها الأخضر

الكثيف يغلف هذه العزلة بجو من السأم الحقير والبغيض معًا، وللمرة الأولى التي لم ير لوقا الجبل قبلها؛ خاب أمله وكذب ظنه عندما لم ير في الجبل الجمال الفائق الذي تصوره.

وكان القطار لا يزال يلف حول الجبل إلى أن انفتح أمامه منفذ. فشاهد لوقا في آخر الممر قمة تفوق الجبلين في علوهما وشموخهما، وقد انتصبت متغطرسة والثلج الأبيض يجللها فتبدو كأنها عمود منتصب في السماء.

وبدت الغيوم تفتح فجوات فيما بينها، فتسربت أشعة الشمس لتتكسر على الثلوج البعيدة وتجعلها متلألئة براقة المظهر، بينما لم يكن يعلم لدى رؤيته لهذا البياض الناصع لم استولت عليه حماسة مباغتة، عملت على نقل فكره إلى هدف مجهول، ولكن بشعور جديد؛ فبدلاً من نقله إلى ذلك الهدف المجهول اشتهى أن ينتقل إلى هذه الثلوج العالية البيضاء بكل نفسه وفكره وشعوره.

وفرك عينيه لينظر جيدًا، ثم بدأ يتطلع إلى هذا الجبل، وكلما أطال النظر إليه شعر بالبهجة والسرور ينموان في روحه. وهذا الفرح المسكر الذي يطمئن إليه لم يكن يعرف له أي سبب أو دافع خارجي يهيب به إلى السرور من مشاهدة قمة من الثلج.

ومع ذلك فلم يستطع أن يمنع نفسه من التأكد من أن هذا المنظر بالذات هو الذي يحرك فيه الرغبة الجامدة منذ مدة طويلة، ويجعلها تهفو إلى أمل بعيد.

ثم التفت نحو السيدة والدته وسألها:

– والممرضة؟

أجابت والدته وهي مندهشة من سؤاله:

– قد تكون الآن تعتني بمريض آخر.

وقال لوقا:

– نعم إنها اعتنت بي جيدًا.

ثم قال مؤكدًا كلامه:

– نعم لقد كانت ممتازة في عملها.. وبالتأكيد لولا قيامها بتمريضي لتأخر شفائي.

وقالت والدته:

– من المؤكد أنها طيبة القلب.

وقال لوقا:

– نعم كانت جيدة.

وقالت الأم:

- بالمناسبة لقد اتصلت بي عدة مرات بالتليفون لتطمئن على صحتك.

وقال لوقا بلهفة:

- وبماذا أجبت عليها؟

وردت الأم باطمئنان:

- بأنك قد شفيت.

فأغمض لوقا عينيه عندما دخل القطار في نفق طويل بعد أن أطلق صفيرًا شاكيًا. ثم فتح عينيه ثانية ليجد نفسه في ظلام مطبق ممزوج بهواء رطب قادم من الطرفين المظلمين، هواء بارد محمل برطوبة ثقيلة، ونفحات بخار دافئة يرتطم بخديه الندبين.

وظهر له ضجيج القطار وجلبة العجلات التي زادها طول النفق صخبًا، كصوت له نغمة واحدة تتكرر بحماس وتعيد ترديد نفس المقاطع لكلمات معينة؛ هذه الكلمات المفعمة بالأمل قد رافقته منذ أن أفاق من الهذيان، ولازمته خلال مدة شفائه البطيء، وفهم بأنه من الآن فصاعدًا لن يدرك المعنى الجديد لضجيج القطار في النفق فقط، أو لبياض الثلوج على قمة الجبل؛ بل سيكون المعنى الجديد من حظ جميع الأشياء التي ستكلمه باللغة الصامتة.

ثم وعلى أثر صفير آخر ظهر القطار ثانية إلى الضوء، ووضح النهار وهو يسير على خط مستقيم، ووضحت المحطة النهائية.. الوصول...